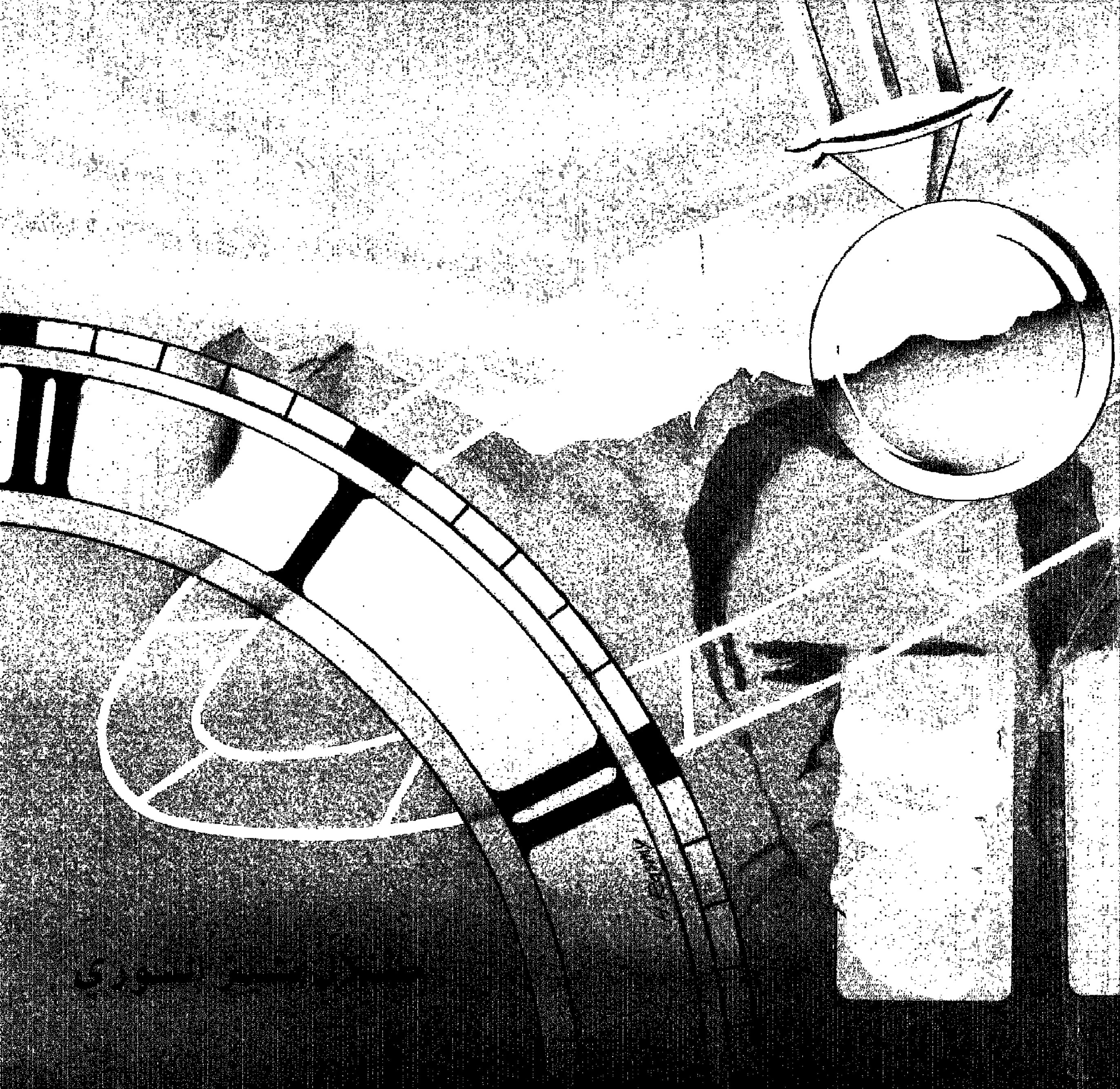
نحن والزمن



زمن والزمن

بسم الله الرحمن الرحيم

مع حبي ...

أهدي كتابي هذا فكرا ومضمونا لرفيقة

دربي ولأبنائي ولأخواني ولك قارئ العزيز

ربما تلمست فيه يقينا يعين على تقلب الزمن

المؤلف

« بسم الله الرحمن الرحيم »

(تمهيـــد)

« الوقت » ، « الزمن » ، « الدهر » ، « الزمان » ، « والأزل » ، كلمات ليست مترادفة تماما ، ولكنها تكاد تكون مسمى لذلك الشيء الموهوم ، الذى لو زعمت أنا ، وكل مفكر أعمل فيه الفكر ، وسطر فى التعريف به ما سطر ، فاننا لن نستطيع أن نسبر غوره ، أو نأتى بتعريف أوحد قاطع لحقيقته ، فالسعى فى استكناه حقيقته ضرب من الغرور العلمى ، وتطلع الى سماوات من المعرفة لاتطال ، ولا يتسنى لعقل البشر المحدود أن يرقى اليها .

فلو أننا بعد كل هذا الجهد الجهيد استطعنا أن نفتح أدنى ثغرة ، وأضيق ثغرة ، لينفذ منها الفكر لاستجلاء حقيقة الوقت ، ومعرفة ماهيته وكنهه ، لكنا قد بلغنا ـ حينئذ ـ غاية ما بعدها غاية ، غاية ترضى طموحنا ، وتصل بفكرنا الى ما يأمله ، ويركن اليه ، ويطمئن .

ولكن هيهات ، فغاية ما بذله المفكرون والباحثون فى مجال التعريف بحقيقة الوقت وماهيته من جهود وبحث إن هى الا اجتهادات متفرقة مبتورة ، ربما كان مردودها نزرا يسيرا جدا من معرفة ، لايدانى الكمال أو يقاربه ، ولاحققت ـ فى كثير من الأحيان ـ للباحث المتأمل ما يطمح اليه ، أو ما كان يأمل فى الوصول اليه .

لقد كان طريق البحث فى مسألة الزمن طريقا طويلا ، سار فيه علماء المسلمين من العرب ، وغير العرب منهم ، كما سار فيه من علماء الغرب من سار وقالوا فيه ما قالوا من أمثال انيشتاين ، وأوليفر لودج ، ودرايتون توماس وغيرهم ، كل أدلى برأيه ، وشارك بفكره جهد طاقته ، ووفق مرئياته .

وهأنذا اليوم أدلى بدلوى وبتعبير أدق أغمس قلمى فيما أدلى فيه غيرى وأوقد شمعة علها تضىء جانبا من الطريق يقربنا لمعرفة حقيقة الزمن ، أسهم بجهد المقل ، هو عطائى الذى آمل أن يدفع بالحقيقة ، ولو يسيرا الى بؤرة الضوء، حتى يستبين بعض الغموض فى هذا الأمر عميق الأغوار ، الممعن فى الابهام والابهام .

« مقـــدمة »

أقول ـ أولا ـ لأوضح لقارئى العزيز جانبا واقعيا نعيشه ونحسه فيما يتعلق بالزمن ، فما أكثر ما نسمع عبارات يرددها الناس دوما .. الاسبوع انتهى ؟ اليوم خميس ؟ ياللطيف .. بالأمس كان السبت فكيف أصبح اليوم الخميس .. هكذا الأيام هذه الأيام . وهى .. هى هى الأيام .. ونسمع شهر رمضان عاد « ياسبحان الله » كان رمضان الماضى بين ظهر انينا بالأمس القريب لم يمض على فراقه أكثر من شهرين أو ثلاثة ، هكذا الزمن هذا الزمن .

هذه الأقوال وأمثالها كثير كنا نسمعها من آبائنا الكبار ولا نعيها احساسا إن كنا وعيناها قولا ، لا نعيرها اهتماما فلم تكن لنا أكثر من كلام يقطع به الكبار وقتهم فلم يسبق لأحد منا أن قال قولا مماثلا أو سمعه من طفل أو من شاب فى مقتبل العمر فيوم الطفل طويل طويل وخصوصا اذا كان دراسيا فسيكون أطول وأطول أنه حصص والحصص سبعة وكل حصة كأنها يوم .

هذا بالنسبه للطفل ، أما بالنسبه لنا فبمجرد العودة من العمل وتناول طعام الغذاء يكون المغرب قد حل ، والليل قد بدأ وانتهى النهار الى غير رجعة . وان كنا فى رمضان فاليوم منته لا محالة دون أن ننجز أى عمل كان من المفروض علينا انجازه . فبمجرد الانتهاء من صلاة التراويح كان اليوم والليلة منتهيين ولا يكفى ما تبقى من الوقت لزيارة قريب أو صديق من الباب وليس أكثر .

ماهذا ؟ اننا والأطفال نمضى ذات اليوم ونعيش نفس اليوم نفس الأربع والعشرين ساعة . وساعتنا كساعتهم تماما ستون دقيقة بالكمال والتمام .. اذن فما الفرق ؟ وكيف نعلل ذلك ؟

انه الزمن المعاش . ان هذه الفكرة على جانب كبير من التعقيد وهى باختصار تتلخص فى أن الزمن هو ما نعيشه من حالات . فالفترة التى تفصل بين

حالتين من حالات الشعور لدينا هى التى تتألف منها فكرتنا عن المدة أو الزمن الماضى . وتقديرنا ليس دقيقا أبدا فانه يتوقف على عدد الحوادث التى نراجعها فى ذاكرتنا عن هذه المدة وعلى شدتها وعلى طابعها العام . فاليوم الروتينى أو الاسبوع الذى يتكرر فيه أداؤنا وبرامجنا سيمضى حتما كسابقه ، ولو استرجعنا ذكراه لما وجدنا فيه ما يسترجع ، ولكن ألم يجرب أحدنا ـ وحتما هذا حصل له مرارا ـ أن يغير هذا الروتين أو البرنامج المعتاد ، كسفر لمدة يوم واحد أو عطلة خارج المدينة من المؤكد عندئذ احساسه بهذا اليوم كزمن يختلف عن احساسه بيومه الروتينى سيكون شعوره بأنه أطول من دون شك .

يحدث دائما أن أسافر لمدة يومين أو ثلاثة وعند عودتى أحس أن غيابى كان أطول من مدته المعدودة . أعود مستفسرا عن كل الناس وعن كل الأشياء . ماذا جرى لفلان ؟ ماذا حصل فى الأمر الفلانى ؟ وهكذا أكون متسائلا وأفاجأ بأن شيئا لم يحدث فالمدة لا تكفى لحدوث شىء ، أو لتطور أمر ما أبدا ، التطور الذى يتكافأ مع تصورى .

يقول علماء النسبية أن شعورنا الغامض بالمدة يتقلب فى مراحل مختلفة ويسرع كلما تقدم بنا العمر فالشيخوخة تحدث تغييرا فى مجرى الزمن لدى الانسان .. فالأيام فيها تجرى سراعا وتطوى طيا بينما أيام الطفل تمشى على هنتها هوينا كما يمشى الوجى الوحل على حسب وصف الشاعر .

ويحاول الفسيولوجيون اقتناص هذا الشعور وقياسه بربطه بسرعة التئام الأنسجة لدى الانسان فى مختلف مراحل العمر . واذا كانت الصلة بين هاتين الظاهرتين لم تنجل بعد جلاء كافيا لهم فليس غريبا أن نتصور انه فى مقابل هبوط خبرة الحواس وبطء المنعكسات لدينا يحدث تغيير فى قيمة أيامنا وقرارها .

ويقولون أيضا أن مجرى الزمن مرتبط فينا بتغير المواد الغروية لخلايا أجسامنا وعلى الخصوص خلايا الدماغ .

أنا أحس بذلك فى نفسى فلم يسبق لى أن قلت أن اليوم انتهى سريعا وان الاسبوع ليس أكثر من يومين ورمضان عاد سريعا هذا العام ولم أشعر بذلك الا من قريب ، ولم يتغير شيء لدى سوى أننى أصبحت على مشارف الأربعينات من العمر وهذا ظنى وتعليلى .

وفى القرآن الكريم الكثير من الأدلة على أن الزمن حالة نعيشها طولا أو قصراً فقد وصف الله سبحانه وتعالى يوم القيامة بأهواله وما سوف نعيش فيه من أحوال وأهوال وما تجرى فيه من أمور يشيب لها الولدان . وتنخلع فيها القلوب . وترى الناس سكارى . وماهم بسكارى . فقال جل من قائل (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) (١) فطول اليوم هنا لأهواله وما تجرى فيه من أحوال وأمور عظام .

كما أنه جل وعلا يصف المجرمين وتقديرهم للمدة التى لبثوا فيها فى الدنيا .. شعوريا .. بأنها قصيرة لا تزيد عن عشرة أيام حيث يقول سبحانه وتعالى : (يتخافتون بينهم أن لبثتم الا عشرا) (٢) .

وفى سورة المؤمنون يقول جل وعلا سائلا الخاسرين (قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين) (٣) فيقولون حسب شعورهم (قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين) (٤) .

ومن هذا كثير مما يؤيد أن الزمن ما هو الا حالة نعيشها وشعورا نعايشه طولا أو قصراً ويتسارع الزمن بشعورنا كلما تقدم بنا العمر .

بعد هذا لا تفاجأوا ان جاءكم الحج بعد رمضان بأسبوعين أو ثلاثة بحسب احساسكم بالزمن . أن صدقتم معى بعد الرحلة فى كتابى هذا أن الزمن وهم ، وما هو الا حالات نعيشها . وهى التى تعطينا الأحساس به ، ومن ثم وجوده بالصورة التى نعيشها ونتعامل بها .

(١) الآية ٤٧ من سورة الحج .
(٢) الآية ١٠٣ من سورة طه .
(٣) الآية ١١٢ من سورة المؤمنون .
(٤) الآية ١١٣ من سورة المؤمنون .

الباب الأول

١ - زمن خلق السماوات والأرض
٢ - مجرى الزمن

« زمن خلق السموات والأرض »

يقول الله سبحانه وتعالى ، فى محكم تنزيله ، فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف :

(ان ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) .

ذلك قول الله تعالى ، خالق الكون ، ومبدع كل شىء وبارئه ، ومبدىء كل الخلق ومعيده ، فهو المبدىء وهو المعيد ، وهو سبحانه ، وجل شأنه ان قال فقوله الحق ، وهو أصدق الصادقين .

آمنا بالله ربنا ، وصدقنا بقوله ، وتلك عقيدتنا لايساورنا فيها شك ، نحيا ونموت ـ باذن الله ـ عليها ، وذلك قول ربنا الذى يقول ، جل من قائل :

(سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)[1] ، ونحن فى تبيّن الحق ، وفى فهمنا لكل أمر تتفاوت قدراتنا العقلية ، ويتباين استيعابنا لبعض الحقائق ، لذا لزم أن نوّضح ، طارحين الفكر ومستشهدين بكل ما تفتق عنه العقل البشرى فى مجال تعليل ظاهرة « **الوقت والمكان** » أو «**الزمن والمكان** » وكلها مسائل تأخذ بأسباب بعضها .

والحقيقه التى لا تغيب عن الجميع أن اليوم هو تعاقب الليل والنهار وأن الأيام هى أجزاء السنين وأن السنين هى حركة الكواكب والأفلاك ، فكيف كانت الأيام قبل خلق الفلك والكواكب ؟ هل كانت هناك أيام ؟ أم أن اسم اليوم يطلق على حالة وليس المقياس الزمنى حسب المفهوم الانسانى ؟

---

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

عدة تساؤلات قد تنفع محاولة جلاء بعض غموضها من مفهومنا لادراك بعض من الحقيقة ، فالتساؤل الأول وهو أن اليوم هو تعاقب الليل والنهار وتعاقبها نتاج حركة الأرض حول الشمس وحول نفسها .

والليل والنهار هما اليوم واليوم هو جزء الشهر والشهر جزء العام ، وتعاقب الأعوام والسنين هو الزمن مما يعنى أن الزمن هو حركة الكواكب ، اذا فكيف أيام بدون كواكب ؟ .

يقول الامام الرازى فى مجمل تفسيره الكبير (**مفاتح الغيب**) فى تفسير تلك الآية الكريمة التى أوردناه فى أول هذا الفصل :

١ ــ الخلق يعنى التقدير على ما قررناه فخلق السموات والأرض اشارة الى تقدير حالة من أحوالهما وذلك التقدير يحتمل وجوها كثيرة .

أولهما : تقدير ذواتهما بمقدار معين مع أن العقل يقضى بأن لا زيد منه ولا نقص منه جائز ، فاختصاص كل واحد منها بمقداره المعين لايبدو أن يكون متخصصا مخصصا وذلك يدل على افتقار خلق السموات والأرض الى الفاعل المختار .

ثانيها : أن كون هذه الأجسام متحركة فى الأزل محال لأن الحركة انتقال من حال الى حال ، فالحركة يجب أن تكون مسبوقة بحالة أخرى والأزل ينافى المسبوقة فكأن الجمع بين الحركة وبين الأزل محالا .

اذا ثبت هذا فنقول : هذه الأفلاك والكواكب إما أن يقال أن ذواتها كانت معدومة فى الأزل ثم وجدت أو يقال أنها كانت موجودة لكنها واقفة ساكنة فى الأزل ثم ابتدأت بالحركة وعلى التقديرين فتلك الحركات ابتدأت بالحدوث والوجود فى وقت معين مع جواز حصولها قبل ذلك الوقت وبعده واذا كان

كذلك كان اختصاص ابتداء تلك الحركات بتلك الأوقات المعينة تقديراً وخلقا ولا يحصل ذلك الاختصاص الا بتخصيص مخصص قادر مختار .

ثالثهما : أن جرم الأفلاك والكواكب والعناصر مركبة من أجزاء صغيرة ولابد وان يقال : ان بعض تلك الاجزاء حصلت في داخل تلك الاجسام وبعضها حصلت على سطوحها فاختصاص حصول كل واحدة من تلك الاجزاء بحيِّزه المعين ووضعه المعين لابد وأن يكون بتخصيص المخصص القادر والمختار .

رابعها : أن بعض الأفلاك أعلى بعض وبعض الكواكب حصل فى المنطقة وبعضها فى القطبين فاختصاص كل واحد منها بموقعه المعين لابد وان يكون لتخصص مخصص قادر مختار .

وخامسها : أن كل واحد من الأفلاك متحرك الى جهة مخصوصة وحركته مختصة بمقدار معين مخصوص من البطء والسرعة وذلك أيضا خلق وتقدير ويدل على وجود المخصص القادر .

وسادسها : أن كل واحد من الكواكب مخصص بكون مخصوص مثل كمودة زحل ، ودرية المشترى ، وصرة المريخ ، وضياء الشمس ، واشراق الزهرة ، وصفرة عطارد ، وزهور القمر وغير ذلك والأجسام متماثلة فى الماهية فكأن اختصاص كل واحد منها بوضع ولون خلقا وتقديرا دليلاً على الفاعل المختار .

وسابعها : ان الافلاك والعناصر مركبة من الأجزاء الصغيرة وواجب الوجود لايكون أكثر من واحد وهى ممكنة الوجود فى ذواتها فكل ما كان ممكنا لذاته فهو محتاج الى المؤثر والحاجة الى المؤثر لاتكون فى حال البقاء والا لزم تكوّن الكائن فتلك الحاجة لاتحصل الا فى زمان الحدوث أو فى زمان العدم وعلى التقديرين فيلزم كون هذه الاجزاء محدثة ومتى كانت محدثة كان حدوثها مختصا بوقت معين وذلك خلق وتقدير ويدل على الحاجة الى الصانع القادر المختار .

وثامنها : هذه الأجسام لاتخلو من الحركة والسكون وهما محدثان ومالا يخلو عن المحدث فهو محدث فهذه الأجسام محدثة وكل محدث فقد حصل حدوثه في وقت معين وذلك خلق وتقدير ولا بد له من صانع قادر مختار .

أما كون اليوم يمتاز عن الليلة بسبب طلوع الشمس وغروبها فقبل خلق الشمس والقمر كيف حصول الأيام ؟ فذلك انه تعالى خلق السموات والأرض في (مقدار) ستة أيام في قوله تعالى : (ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) (١) مع انه لا ليل ثم ولا نهار ولكن مقدار البكرة والعشي في الدنيا .

اذا أيضا لازمن هناك فلا ليل ولا نهار ولا حركة افلاك انما حالات توصف للتقريب لمفهوم البشر بمقادير يعرفونها . كمن يقول لطفله احبك قدر البحر فلا الحب يجسم ولا البحر له من المعاني الحسية ولكن تقريبا لمفهوم المتلقي.

نخلص مما أورده إمام مفسرى عصره فخر الدين التيمي الرازى ، ــ وهو عالم ذو باع طولى في علم المنقول والمعقول ــ الى أن كل حركة أو سكون ، وكل تقدير لزمن إن هي الا أحداث ، ولا بد للحدث من محدث مقدر مختار ، وهو الله الذى لا اله الا هو .

وإن كل تقدير للمادة ، وكل بدء لحركة الافلاك ، ومقدار أحجامها ، وحركتها الى أى الجهات وبمقدار مخصوص بطء وسرعة إن هو إلا حدث ، ولابد للحدث من محدث ، هو الله الذى لا اله الا هو ، وما ثم زمن على الحقيقة إن هي الا حالات .

---

(١) الآية ٦٢ من صورة مريم .

« مجـــرى الزمـــن »

اذا شئنا أن نلج الى بحث موضوع الزمن وحقيقته ، فيلزمنا أن نمهد لهذه المسألة بالتعرض لعدة أمور من باب تهيئة الذهن ، وفى حين أننا حشدنا للبحث فى هذه المسألة كل ماوسعنا حشده من آراء وأقوال ، الا أن هناك مسائل هامة لا مناص من التركيز عليها بحسبانها ركائز البحث وجوهره هى : مجرى الزمن بواعثه وقياسه بالنسبة للفرد ، ثم الزمان وارتباطه بالمكان .

وسنتناول المسألة الأولى مباشرة وبايجاز بينما نؤجل الأخرى لنبحثها لاحقا، حين يقتضى البحث الخوض فيها .

أما مسألة مجرى الزمن فالرأى الغالب فيها هو ان مجرى الزمن مرتبط فينا بتغير المواد الغروية لخلايا جسمنا وعلى الخصوص خلايا الدماغ ، فإن أنواع الشذوذ الذى يطرأ على شعورنا بالزمن المعاش فى بعض الحالات غير السوية (النوم) أو الحالات المرضية مثل الحمى والتسمم يقابلها تغيرات فى توازن الغرويات للجهاز العصبى ، ويخضع تغير هذه الغرويات للمبدأ الثانى من مبادىء الديناميكا الحرارية « مبدأ كارنو » الا وهو مبدأ اللارجعه ، فمحور الزمن له اتجاه واحد هو الاتجاه الامامى ، ولايرجع الى الوراء أبدا ، ومبدأ اللارجعة هذا يسيطر على حركة التطور فى الكائنات جميعا ، وتسود فيه فكرة الاحتمال .

فالحالة الأكثر احتمالا تعقب حالة أقل احتمالا من غير أن ترجع الى الوراء ، وهذا هو السبب الذى يحول دون نكوص المجاميع المعقدة ومنها الانسان وتقهقرها عبر الزمن ، واذا فمجرى حياتنا ومجرى زماننا المعاش الذى لايقهر هى حالة خاصة من حالات مبدأ من مبادىء فيزياء المجاميع المعقدة .

هذا مختصر « موجز » جداً لمسألة مجرى الزمن نعقبه بالمسألة الأخرى وهى بواعث الزمن وقياسه بالنسبة للفرد وما نعنيه هنا هو الزمن وقياسه بيولوجيا ، ويتمثل هذا الأمر فى احساس الانسان بالزمن وترتيبه .

اذ لم يعد مجهولا لدى الأطباء أن هناك في داخل أجسامنا ساعة زمنية بيولوجية « وهمية » هي المنظم للترتيب البيولوجي للجسم مثل تنظيم دقات القلب ، فما من وظيفة في الجسم الا ولها نظامها الخاص ، وانتفاء تلك النظم يعني الموت .

فالخطر اليومي المحيق بالاوعية القلبية لا يصدر عن الساعة المنبهة قرب سرير أحدنا بل عن ساعة بيولوجية تنبض داخل أجسامنا .

إن ضوابط الوقت الرئيسية في أجسامنا تتيح لنا التزامن ودورتي الليل والنهار ، فهي على غرار قادة الفرق الموسيقية تتولى تنسيق مئات الوظائف داخلنا، وتتحرك أجسامنا خلال النهار وفق تواتر داخلي معقد من مدّ وجزر للهرمونات وخلايا المناعة والمنحلات الكهربائية والأحماض الأمينية [(١)] .

وهناك حقيقة أن الناس يقسمون الى صباحين ومسائين كل حسب طبيعته .

ولقد ظهر قياس التوتر اليومي للنظم البيولوجية إن سرعة نبض القلب تبلغ أوجها عند « **الصباحيين** » بين الساعة الأولى والثانية بعد الظهر ، بينما تبلغ أوجها عند « **المسائيين** » بين الخامسة والسادسة والنصف مساء .

فالصباحيون يفرزون كميات أكبر من هرمون الادرينالين المنبه خلال ساعات الصباح ، يستتبعها انخفاض في مستويات الأداء خلال النهار .

أما المسائيون فيبدأون نهارهم بوتيرة أبطأ ومستوى متوسط من الادرينالين ويتحسن نشاطهم خلال النهار وفي ساعات المساء الأولى .

---

(١) لويل بونتي المختار يونية ١٩٩٢ م .

ويبلغ معظم الناس ذروة نشاطهم الفكرى والذاكرى ضمن فترة وجيزة تمتد من ساعات الصباح الأخيرة الى ما بعد الظهر وقرابة الأولى بعد الظهر تبدأ الطاقة ، والفاعلية فى الانخفاض . وهذا يفسر مادرجت عليه بعض شعوب منطقتنا (**الشرق الأوسط**) من اقفال المحال التجارية وتوقف جزئى للنشاط فى كل أوجهه خلال فترة من بعد الظهيرة . اضافة الى عوامل المناخ .

أما ردود الفعل الارتكاسية والمهارة اليدوية والقدرة على تحمل التمارين البدنية فتبلغ أوجها خلال فترة بعد الظهر وتدل الابحاث على انه ابتداء من هذا الوقت وحتى أوائل العشية يؤدى الرياضيون افضل أدوارهم وتعتبر الفترة الواقعة بين السادسة والنصف الى الثامنة والنصف مساء الوقت الأمثل للدراسة وتوثيق الذاكرة .

وغالبا ما يراجع الطلاب دروسهم للامتحانات فى ساعات متقدمة من الليل أو فى ساعات الصباح الأولى ، الا أن الأبحاث أظهرت أن الذاكرة الطويلة الآن والقادرة على الفهم والحفظ تكونان فى أدنى مستوياتها خلال هذا الوقت .

ويزداد الشعور بالألم عموما خلال النهار . ويبلغ أوجه فى وقت متقدم من الليل ، ولكن مع الصباح يكون الجسم قد ضاعف مستوياته الليلية من الاندرينين الباقى الذى يساعد فى تخفيف الألم ، خلال ساعات النهار التى تلى النهوض من النوم .

النوم لمعظمنا هو الوقت الذى تتجدد فيه الحياة فخلال الدقائق التسعين الأولى من النوم تبلغ ذروة مخزوننا اليومى من هرمون النمو الذى يتيح لأجسامنا التجدد .

أما بالنسبة الى النساء الحوامل فعادة يبدأ المخاض فى الساعات التى تقع بين منتصف الليل والرابعة فجراً .

إذن نحن نستطيع اذا مافهمنا ساعتنا الجسدية أن نحسن صحتنا ونعزز قدرتنا وإذا ما أحسنا استخدام دورة ساعتنا البيولوجية أمكن لنا أن نحفظ من الأخطار اليومية المحدقة بنا .

الباب الثانى

١ – الزمن فى القرآن الكريم
٢ – الأزل والزمن
٣ – تأثير الحاله فى الزمن
٤ – التشابه والتميز فى وحدات الزمن

« الزمـــن فى القــــرآن »

لقد اعتبرنا الصفحات السابقات تهيئة ذهنية ـ لنتدرج ـ فيما بعد ـ بين فصول هذا الكتاب هونا، والفصول رغم تباين البحوث فيها ، واختلاف مناهجها، إلا أنها ترتبط برباط وثيق هو وحدة الموضوع ، حتى تستبين حقيقة ما نسعى اليه، وحتى نصل ـ آخر الامر ـ إلى حكم علمى نافع وإلى رأى ناضج مفيد .

ولقد فزعنا ـ أولا ـ الى رأى عالم جليل ، مشهود له بالمعرفة ، والتجرد فى البحث ، هو الامام الرازى ، ثم ولجنا الى النفس البشرية ، والذات الانسانية ، لنكشفه عن مخبوئها فيما يتعلق بهذا الأمر ، فزيائيا ، وعرضنا لرأى العلماء والباحثين المختصين فى هذا .

فإن كان كل ما سبق هو من باب التمهيد ، ويقيننا أن أمر الوقت يحتاج الى التمحيص والتقليب لعدة جوانب وأنه أمر خطير الشأن حقيقة ، وعميق الغور، فإن خير ما نبدأ به البحث هو ما قال الحق عزّ وجلّ ، وما بينت السنة النبوية المطهرة ، فعلى هذا وهذا نعلق الأمل وبشواهدهما النصية نستدل ، وببركتهما نسأل الله حسن المولج والمخرج فى هذا الأمر .

وأول ما نلاحظ أنه لم يرد مصطلح (**الزمن**) فى القرآن الكريم ، بل أن مادة (زمـن) لم ترد فى كتاب الله أبدا ، ولكن ورد مصطلح الوقت ، ومادته كـمـا ورد مـصطلح « **الدهر** » وأجـزاء الزمن مـثل السنين والشـهـور والأيام والساعات.

ولقد أدرك الزمن بواسطة الحركة المتغيرة منه ولو ان كل شيء فى الوجود يسير بنفس السرعة لما عرفنا أن هناك حركة ، وبالتالى لما عرفنا الزمن . فمن اختلاف السرعات واختلاف نسبها ظهر الزمن وبالتالى أدركناه .

والوقت هو ربط الزمن بحدث ما ، من أجل المعرفة النسبية للحركة . لذا كان الوقت زمنا معلوما .

وقد ورد في القرآن الكريم مصطلح الوقت بهذا المعنى حيث ربط الوقت بأحداث ، فالساعة حدث . قال تعالى : « قل إنما علمها عند ربى لايجليها لوقتها إلا هو » (١) .

وقال تعالى « إن يوم الفصل كان ميقاتا » (٢) .

وقال تعالى « إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين » (٣) .

وعندما سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الأهلة أنزل الله تعالى الآية : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » (٤) .

كما أن الكثير من العبادات مرتبط بوقت ، والوقت مرتبط بحدث ، فالصلوات مرتبطة بأحداث هى مواقيت فالظهر عند توسط الشمس كبد السماء والمغرب عند غروبها وهكذا ... وقال تعالى : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (٥) .

والحج فى اليوم التاسع من شهر ذى الحجة ويوم التاسع يعنى حدوث وضع معين للقمر من الأرض .

---

(١) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٧ من سورة النبأ .

(٣) الآية ٤٠ من سورة الدخان .

(٤) الآية ١٨٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١٠٣ من سورة النساء .

والصيام في شهر معين يبدأ من حدث بدء بزوغ الصبح الى غروب الشمس وهكذا فإن كل العبادات مرتبطة بمواقيت معينة فكانت الأهلة كما أرادها الله أن تكون هي مواقيت للناس [1].

اذن هناك اختلاف كبير بين مصطلح الزمن والوقت ومصطلح الزمن لم يرد في القرآن الكريم ، فالزمن أمر متوهم لا وجود حقيقي له ، وحتى في استعمالاتنا فإنا نفرق بين الزمن والوقت فنقول الساعة الآن السابعة مساء حسب توقيت جدة مثلا ولا نقول حسب زمن جدة .

فنستعمل مصطلح الزمن في المجردات وعندما نربطه بحدث ما نستعمل كلمة الوقت فنقول وقت الصلاة وقت الصيام وهكذا .

---

(١) الكتاب والقرآن ، د. محمد شحرور .

« الأزل والزمـــن »

الأزل للخالق ، والزمن للمخلوق ، فالزمن للانسان أمراً نسبياً لا حقيقة له في عينه ، والانسـان ذاك المحدود المخلوق فالأزل أبعـد أن يكون حدا لوجود الله سبحانه وتعالى ففى قول من قال أن الله تكلم فى الأزل وقال فى الأزل وقدر فى الأزل كذا .. وكـذا ــ الى آخر هذه الأقـوال ويتوهم أن الأزل امتداد كمـا توهم وجود الزمن وامتداده بل هو سبحانه وتعالى عين الأول .

فمـدلول لفظه الأزل هو عبارة عن نفى الأولية عن الله تعالى أى لا أول لوجـوده بل هو سبـحانه وتعـالى عين الأول لا بأوليـه تحكم عليـه فيكون تحت إحاطتها ومعلولا عنها .

فالحق يقـدر الاشياء أزلا ولا يقال يوجد أزلا فهـذا محال من وجـهين فإنه كونه تعالى موجداً إنما هو بأن يوجد ولا يوجد فمن المحال أن يتصف الموجود الذى كان معدوما بأنه موجود أزلا بل إنه موجود عن مؤجد أو جده .

والأزل نفى الأوليـة عن الموصـوف به فـمن الحـال أن يكون العـالم أزلى الوجود ووجوده مستفادا من موجده وهو الله سبحانه وتعالى .

والوجه الآخر من المحال أن يقال أن العالم موجود أزلا لأن معقـول الأزل نفى الأولية والحق هو الموصوف به وهو الأول .

« هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم » [1].

---

(١) الآية ٣ من سورة الحديد .

« تأثير الحالة فى الزمن »

البحث فى أمر الزمن ينظم كل المراحل ، ويقتضينا التطرق اليها جميعا ، فالزمن يكتنف الوجود ، والحياتين الدنيا والآخرة ، وهو يجتازنا أو نجتازه .. ونحن أحياء ونحن أموات وبعد البرزخ ، فالزمن ملازم لنا فى كل حال .

وبما أن الزمن شيء نحسه ونعيشه ونقدره بحواسنا فمما لاشك فيه أن الحالة التى نحن عليها هى المؤثر فى تقديرنا للزمن . والزمن هو الحالة التى نحن عليها وهذان شيئان لا ينفصلان . ـ السيكومكانية ـ .

يقول المولى عز وجل : « يتخفتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما » (١) .

اختلف العلماء فى المراد بقوله تعالى : « إن لبثتم » أكان المقصود اللبث فى الدنيا أو فى القبر فقال قوم أرادوا به اللبث فى الدنيا وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك واحتجوا عليه بقوله تعالى : « قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين » (٢) .

فأما أنهم نسوا أنهم قد لبثوا فى الدنيا أو لم ينسوا ، الأول غير جائز أو لو جاز ذلك لجاز أن يبقى الانسان خمسين سنة فى بلد ثم ينساه . والثانى غير جائز لأنه سيكون كذبا وأهل الآخرة لا يكذبون ، لذا هناك عدة تفسيرات .

التفسير الأول :

إذا حشروا فى أول الأمر وعاينوا تلك الأهوال فلشدة وقعها عليهم ذهلوا عن مقدار عمرهم فى الدنيا وما تذكروا الا القليل ، فقالوا ليتنا ما عشنا تلك

---

(١) الآيتين ١٠٣ ـ ١٠٤ من سورة طه .

(٢) الأية ١١٣ من سورة المؤمنون .

الأيام القليلة فى الدنيا حتى لا نقع فى هذه الأهوال والانسان عند الهول الشديد قد يذهل عن أظهر الأشياء .

التفسير الثانى :

انهم عالمون بمقدار عمرهم فى الدنيا الا انهم لما قابلوا أعمارهم فى الدنيا بأعمار الآخرة وجدوها فى غاية القلة . فقال بعض « ما لبثنا فى الدنيا إلا عشرة أيام وقال أعقلهم بل ما لبثنا إلا يوما واحداً بالقياس إلى قدر لبثنا فى الآخرة » .

التفسير الثالث :

أنهم لما عاينوا الشدائد تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها فوصفوها بالقصر لأن أيام السرور قصار .

التفسير الرابع :

ان أيام الدنيا انقضت وأيام الآخرة مستقبلة والماضى وان طالت مدته قصير بالقياس الى المستقبل وان قصرت مدته فكيف ان كان العكس هو الحاصل (١) .

على كل الاحتمالات فان الحالة التى هم عليها هى الفاصل فى الاحساس التقديرى للزمن الذى لبثوه كما ان هناك أكثر من موضع فى كتاب الله يتناول هذه الحالة . وأقصد حالة الاحساس بالزمن بالارتداد الى الحالة ذاتها أمثال ذلك لا حصرا .

أ ـ فى سورة الروم يقول تعالى : « ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون » (٢) .

---

(١) التفسير الكبير للامام الرازى ـ ٢٤ .

(٢)

ب ـ وفى سورة النازعات يقول تعالى : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحها » [1].

جـ ـ « قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم » [2].

د ـ « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الا ساعة من نهار » [3].

هـ ـ « ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا الا ساعة من النهار » [4].

---

(١) الآية ٤٦ من سورة النازعات .

(٢) الآية ١٩ من سورة الكهـف .

(٣) الآية ٣٥ من سورة الاحقاف .

(٤) الآية ٤٥ من سورة يونـــس .

« التشابه والتميز فى أجزاء الزمان »

اذا عدنا الى التأمل فى أيامنا التى عشناها ونعيشها نجد أنه لا يميزها عن بعضها من جهة صفاتها بداية ونهاية شىء مميز ، ولا يميزها عن بعضها الا شعورنا وما تحمل من أحداث ، فيوم سعدنا فيها يمر كساعة ، وساعة شقينا فيها تمضى كيوم .

الأيام إذن سواسية ، فإن احتاج منا هذا المنطق الى دليل قلنا انظر لأيام الطفل الحدث لا يعرف عنها الا انها ظلمة تحل ، ونور عند الصباح يبزغ لافضل ليوم عن يوم ولا تميز لنهار عن نهار أو ليل عن ليل ، وابلغ من هذا رجل احتبس فى مفازة ، أو غابة ، أو جب ، ومضى عليه دهر من الزمان ، وضاع من حسابه حساب الأيام ، فهى تكرّ عليه سواسية جمعتها كسبتها ، وخميسها كجمعتها ، عيد الناس ، أو صيامهم أشهرهم الحرم ، أو أيام حربهم كلها لا يميزها عن بعضها عنده مميز .

اذن فأيام الزمان متشابه فى الحقيقة ، ولكنها مميزة عند الله وفى جميع الشرائع . فما سبب هذا التميز ؟

ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى ميز ليلة القدر عن سائر الليالى والأيام ، فقال جل وعلا : « ليلة القدر خير من ألف شهر »[١] وميز يوم الجمعة عن سائر أيام الأسبوع وبيّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جملة أحاديث صحيحة ، فقد ثبت فى الصحاح أن خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة وخص الله تعالى شهر رمضان عن سائر الشهور بمزيد الحرمة ووجوب الصوم . كما ميز الله سبحانه وتعالى أجزاء النهار والليل بعضها عن بعض . فلكل صلاة، ولكل ميزة الامثلة ظاهرة ومشهورة ، والشواهد النصية قائمة على ذلك .

---

(١) الآية ٣ من سورة القدر .

لذا لا يستبعد ان الله سبحانه وتعالى يعلم وهو العليم المحيط بكل شيء أن وقوع الطاعة في هذه الأوقات أكثر تأثيرا في طهارة النفس ووقوع المعاصي فيها أقوى تأثيرا في خبثها على النفس .

فهناك أوقات أقرب الى استجابة الدعاء وقبول الطاعات مثال ذلك ما ورد في الصحاح عن تنزل الله سبحانه وتعالى في الثلث الأخير من الليل لإجابة السائل والغفران للمستغفر وما ورد في العشرة الأخيرة من رمضان من فضل على سائر ما سبقها من أيام رمضان .

وهناك رأى آخر في تفضل بعض الأوقات عن بعض مثل الأشهر الحرم عن غيرها وهو أن الطباع مجبولة على الظلم والفساد وامتناع البشر عن هذه القبائح على الاطلاق شاق غير ممكن فالله سبحانه وتعالى خص بعض الأوقات بمزيد التنظيم والاحترام ، والامتناع المطلق عن القبائح والحرمات .

فلربما امتنع الانسان في تلك الأزمنة عن القبائح والمحرمات وبادر الى الطاعات وربما كان تركه هذا ومبادرة تلك سببا ودافعا لميل طبعه الى الأعراض عنها مطلقا (١) .

واستكمالا للتعريف بالأيام ترتيبها وتميزها نسوق بعض ما اصطلح عليه العرب الأقدمون في شأن التوقيت ، وما جاء الشرع مؤيداً له ، كما نورد بعض ما نص عليه الشرع من تميز الأيام مما لم يكن معروفا قبل الاسلام .

فالسنة عند العرب اثنى عشر شهراً من الشهور القمرية وهذا مؤيد بقول الله سبحانه وتعالى : « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض » (٢) .

---

(١) مفاتيح الغيب للامام الرازى .

(٢) الآية ٣٦ من سورة التوبة .

أما عن كونها قمرية فالله سبحانه وتعالى يقول : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » (١).

فجعل تقدير القمر بالمنازل عدّ للسنين والحساب ، وذلك إنما يصح إذا كانت السنة معلقة بسير القمر .

وقال سبحانه وتعالى أيضا : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » (٢).

وقد سميت الأشهر العربية بأسماء يقال أنها كانت مرتبطة بالدورة الفلكية والإ فكيف يسمى ربيع وهو يوافق الشتاء أحيانا ويوافق الصيف فى أحيان أخرى؟..

أو كيف يكون جمادا من جمود الماء من شدة البرد ويوافق صيفا قائظا أحيانا أو ربيعا ؟ ..

أو أن فى حسابهم الشهور لا تدور فاذا كانت منوطة بالأهلة فلابد من دورانها .

أو أنهم أول ما سموها فى حينها كانت مطابقة للواقع واستمرت تلك الاسماء تتباعد عن المسمى وتختلف ..

وقد يكون فيما أورده الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره الكبير ما يجلى الغموض فى هذا الأمر حيث يقول ان السنة عند سائر الطوائف من غير العرب هى عبارة عن المدة التى تدور الشمس فيها دورة تامة والسنة القمرية أقل من السنة الشمسية بمقدار معلوم وبسبب ذلك النقصان تنتقل الشهور القمرية من فصل الى فصل .

---

(١) الأية ٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٨٩ من سورة البقرة .

فيكون الحج واقعا فى الشتاء مرة وفى الصيف مرة أخرى وكان يشق الأمر على العرب لهذا السبب وايضا كانوا اذا حضروا للحج حضروا للتجارة ايضا .

وربما كان ذلك الوقت غير موافق لحضور التجارات من الأطراف وكان يخل بأسباب تجاراتهم .

لذا أقدموا على عمل الكبيسه على ما هو معلوم فى علم الزيجات واعتبروا السنة الشمسية وعند ذلك بقى زمان الحج مختصا بوقت واحد معين وكان ذلك موافقا لمصالحهم ومنافعهم فى تجارتهم وكان هذا سببا لحصول المصالح الدنيوية وتغيير حكم الله تعالى لأنه سبحانه وتعالى خص الحج بأشهر معلومة على التعيين.

ولما كانت السنة الشمسية زائدة على السنة القمرية جمعوا تلك الزيادة فاذا بلغ مقدارها الى شهر جعلوا تلك السنة ثلاثة عشر شهراً .

ومذهب العرب من الزمان الأول ان تكون السنة قمرية لا شمسية وهذا حكم توارثوه عن سيدنا ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، ولكن بمجيىء الاسلام عاد الأمر الى نصابه كيوم خلق الله السموات والأرض « ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض»(١) .

وفى حجه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ألا ان الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض . السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان » (٢) .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة التوبة .

(٢) رواه أبى بكره ـ فتح البارى .

وذكر الطبرى عن أبي مالك ، كانوا (العرب) يجعلون السنة ثلاثة عشر شهرا ومن جهة أخرى كانوا يجعلون السنة اثنى عشر شهرا وخمسة وعشرين يوما فتدور الأيام والشهور كذلك .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا ان الزمان قد استدار .. » الحديث فنهى عن هذا وغيره وعن النسيئة فى الأشهر الحرم حيث كان (العرب) يؤخرون بعض الأشهر الحرم وقيل كانوا يجعلون المحرم صفرا ويجعلون صفرا المحرم لئلا يتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يتعاطون فيها القتال .

فلذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث « متواليات » وفى ذلك اشارة الى ابطال ما كانوا يفعلونه من تأخير لبعض الأشهر الحرم . فيجعلون صفرا قبل المحرم فيحل القتال فيه ويعودون الى التحريم فى المحرم الذى هو مكان صفر ولكن بمسمى المحرم .

ومنهم من يجعل ذلك سنه هكذا وسنه هكذا ومنهم من يجعله سنتين هكذا وسنتين هكذا .. وآخرون يؤخرون صفرا الى ربيع الأول وربيعا الى ما يليه وهكذا الى أن يعد شوال ذو القعدة وذو القعدة ذو الحجة ثم يعود فيعيد العدد على الأصل .

وفى ذلك قال عميد بن قيس المعروف بجذب الطعان :

لقد علمت معد بـأن قومـي ∴ كـرام الناس ان لهم كرامـا

ألسـنا الناسـئين على معـد ∴ شهور الحـل نجعـلها حرامـا

مـال الناس لم نـدرك بوتـر ∴ وأى الناس لم تمـلك لجامـا

أما قوله صلى الله عليه وسلم « ورجب مضر » اضافة اليهم حيث كانوا الأكثر تمسكا بتعظم رجب خلافا لغيرهم فيقال ان ربيعة كانوا يجعلون بدله

رمضان وكان من العرب من يجعل فى رجب وشعبان ما ذكر فى المحرم فيحلون رجبا ويسمونه شعبانا ويحرمون شعبان ويسمونه رجبا .

أما وصفه له صلى الله عليه وسلم بكونه بين جمادى وشعبان فتأكيد له وقد وصل ببعضهم الحال أن رفضوا تخصيص الأربعة الحرم وأوقعوا أربعة مطلقة من السنة فيقول صلى الله عليه وسلم ان الاشهر رجعت الى ما كانت عليه وبطل النسىء بكل اشكاله .

وهناك لطيفة فى ترتيب الأشهر العربية وللمحرم خاصة مزية على ما عداها ففيها يبدأ العام ويبدأ وسطه بها يختم . والختم يكون لشهرين منها لوقوع الحج ختام الأركان الأربعة لأنها تشتمل على عمل مال محض وهو الزكاة وعمل بدن محضر .

وذلك تارة يكون بالجوارح وهو الصلاة وتارة بالقلب وهو الصوم وتارة عمل مركب من مال وبدن وهو الحج ، فلما جمعها ناسب ان يكون له الضعف ما للواحد منها فكان له من الأربعة الحرم شهران .

الباب الثالث

١ – الزمكان
٢ – هل للزمن وجود ؟
٣ – ثنائية الوجود
٤ – السفر عبر الزمن

« الزمــكان »

نسأل أنفسنا فى ساعة تأمل وتفكر : هل نحن الذين نمضى عبر الزمن نقتطع منه أجزاءه كما نمضى فى الطريق ، كلما قطعنا منه جزءا أصبح خلفنا (كالماضى) وكلما بلغنا جزءا منه كان هو الحاضر الواقع ، بينما يكون ما نحن مقدمون عليه هو المستقبل ، ولن يلبث أن يكون حاضرا ، ليضحى بعد أن نعيشه ثم نتجاوزه ماضيا ؟

أم هل نحن على ما نحن عليه ، يمضى الزمن ، كشريط يتداوله الليل والنهار ، لا ينالنا منه الا ما يعترينا من تغيرات فيزيولوجية ، وحدثان الليالى مما يعترى حياة الناس من أمور ؟ .

ان فكرة الزمن المعاش على جانب كبير من التعقيد فالفترة التى تفصل بين حالتين من حالات الشعور عند أحدنا تتألف منها فكرته عن المدة لكن تقدير هذه المدة ليس دقيقا ابدا ، فهو (أى هذا التقدير) يتوقف على عدد الحوادث التى نراجعها فى هذه المدة وعلى شدتها وطابعها العام .

يضاف الى ذلك أن شعورنا الغامض بالمدة يتقلب فى مراحل مختلفة ، ويسرع كلما تقدم بنا العمر ، فالشيخوخة تحدث تغييرا فى مجرى الزمن . فالأيام فيها تجرى سراعا وتطوى طيا بينما أيام الطفل تمشى على هنتها ، ويحاول الفسيولوجيون اقتناص هذا الشعور وقياسه يربطه بسرعة التئام الانسجة فى مختلف مراحل العمر .

واذا كانت الصلة بين هاتين الظاهرتين لم تنجل بعد انجلاءا كافيا ، فليس غريبا أن نتصور فى مقابلة هبوط حدة الحواس وبطء المنعكسات تغيرا فى قيمة أيامنا وقرارها تغييرا فى مجرى الزمن ، فالأيام فيها تجرى سراعاً وتطوى طياً

ونصل ـ آخر الأمر الى أن كلتا الحالتين هما زمان الناس ولكن بأى معيار نعيِّر الزمن ..؟ هل باندفاعنا فيه ؟ أم باندفاعه هو الذى لا يتوقف ويمضى كما شبهوه بالسيف ، ويظل الزمن محور اهتمام الانسان الحى ، وشغله الشاغل يلوِّنه، ويشكله طولا وعرضا حسبما تكون عليه حالته الذهنية ، ويصطلح على تقسيمه ، وتجزئته ، بل وتسميته تلك الأجزاء .

فالزمن فى المفهوم العام هو السنين والشهور والأيام والساعات حاصلا من تعاقب الليل والنهار ناتجا من حركات الفلك بالتكرار .

فليس للزمان كيان خاص به فهو من خصائص المادة وهو البعد الرابع فيها وهو حالة ذهنية وليس حقيقة قائمة بذاتها .

والمستقبل قد يتصل بالحاضر وقد يلحق بالماضى ، لذا فأننا فى كل لحظة نقتطع جزءا من المستقبل ونضعه الى الماضى فلا ينقص هذا ولا يزيد ذاك . لأن كلا منهما لا نهائى والحقيقة فى النهاية هى أن الزمان عبارة عن حالا متنوعة فى المكان ، وخيوط داخلة فى تكوين المادة كما هى داخلة فى تكوين مشاعرنا . فهو من داخلنا وبالادق حالتنا .

وأجسادنا المادية المخلوقة من تراب ستعود الى التراب كما يقول الله عز وجل « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (١) .

وقوله تعالى : يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب »(٢) وقوله تعالى : « ومن أياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون » (٣).

---

(١) الآية ٥٥ من سورة طـه .

(٢) الآية ٥ من سورة الحج .

(٣) الآية ٢٠ من سورة الروم .

اذن هذا الجسد المخلوق من مادة التراب المتحلل ينطبق عليه قانون الفناء ، أما الروح الباقية الخالدة ذات الشعور بالحياة الأزلية فخالدة لقول الله سبحانه وتعالى :

« ان الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية » (١) .

وقوله تعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات : « جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ... » (٢) .

ففى حياتنا الدنيا نحن مرتبطون ارتباطا دقيقا بنظام هذه الحياة ومن أول نظمها النظام الزمنى التسلسلى الناتج عن ارتباط المادة بالزمن كعنصر واحد وقد يحدث أحيانا أن يخرج البعض القليل بقدرة الله تعالى من هذا النظام كالرسل والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام .

والنائم أيضا يخرج من هذا النظام فيرى الماضى ويرى المستقبل وان كان برمزية معينة لا يفقهها الا القليل من البشر ، أمثال يوسف عليه السلام ، ومن أوتى العلم فى تفسير وتأويل الرؤى والأحلام .

وقصة يوسف عليه السلام معروفة للجميع ــ وتعبيره للرؤى وارد فى كتاب الله .

فالزمان والمكان عنصران متداخلان بنسيج لا انفصام فيه فأى اشارة لزمان هى فى الحقيقة اشارة لمكان ولحال معين . فيوم كذا الساعة كذا تعنى أن الأرض فى الوضع كذا .

---

(١) الآية ٦ من سورة البينة .

(٢) الآية ٨ من سورة البينة .

وبعدها أو قربها من الشمس كذا والموقع المشار اليه زمنيا فى اتجاه كذا . ولا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون الزمان فيه الا حالة مكان .

فهما عنصران لا ينفصلان الا فى أذهاننا واتصالهما هو اتصال (زمكانى) ينساب عليه وجودنا .

يقول العالم ميكوفسكى « يجب أن يتوارى فى الظل الزمان والمكان كاقنومين متميزين ولا يبقى الا نسيج واحد مركب منهما معا وهذه هى الحقيقة» .

ان الرياضيات الحديثة توصلت الى معرفة أن الزمان والمكان لا يعتبران شيئين منفصلين بل تتوقف قيم الطول والزمن والكتلة على السرعة النسبية للاشياء طبقا لنظرية النسبية كما وصل اليها اينشتين وفيها تختلف بديهيات هندسة الزمان والمكان فى الطبيعة اختلافا كبيرا عن البديهيات العتيقة المتعارف عليها .

نحن نشعر أن الزمان منفصل عن المكان لكون المستوى المادى مكون من ثلاثة ابعاد فحسب هى الطول والعرض والارتفاع ، وارتباط حدود هذه الابعاد الثلاثة بقدرة الحواس المنفصلة عن فكرة الزمن .

ولعل الاحلام التى تمر بنا فى منامنا أصدق مثال عن فكرة الاحساس الرباعى الابعاد ـ الطول والارتفاع والعرض والزمن كوحدة واحدة مجتمعة ـ بحيث يتلاشى الاحساس بالمكان والزمان وتظهر حالة احساس معينة من السعادة أو الضيق أو الرضا أو الغضب أو الفرج أو الألم وهكذا .

وبعض المفكرين التجريديين ينظرون الى الزمن نظرة أخرى فيقولون أنه غير موجود بمعنى الكلمة ولكنه يتجلى لنا نتيجة لتتابع الأحداث والتغيرات التى تتم

حولنا وفى داخل أجسامنا وأنه نتيجة لازمة فى الوعى والشعور حتى أصبح صفة بارزة فينا ومع ذلك فالزمن هو الوسيلة الوحيدة التى تكشف لنا عن عالم خارجى بأبعاد أربعة وربما أكثر ولا يتراءى لنا ذلك فى أحلامنا .

ففى أثناء النوم يتحرك العقل والشعور فى أبعاد أخرى غير تلك التى نعرفها فى يقظتنا ، فالبعض يرى فى نومه أحداثا مستقبلية قد تتحقق بعد ساعات أو أيام أو شهور ... اذن فأين كنا أثناء النوم ؟ . وفى أى بعد كان العقل الباطن يتجول؟

من المؤكد أننا كنا غائبين أثناء النوم غير شاعرين بأجسامنا ، كنا غائبين بالنسبة لهذا العالم ولكننا أحياء أثناء النوم لنتجول من خلال أحلامنا فى عالم غير محدد بالأبعاد الثلاثة التى نعرفها فى يقظتنا .

بل ربما كنا نمر بتجربة أبعاد أربعة أو أكثر فنرى بعض أحداث الماضى ماثلة أمامنا رغم أنها ولت أو قد نرى أحداثا بعد لم تحدث وإذا بها تحدث فى المستقبل قرب أم بعد .

وكان هذا الشعور ينطلق بدون حدود أثناء النوم فى الزمان والمكان دون أن ندرى .

وربما ينتاب الانسان منا شعور دفين بأن شيئا ما سيحدث وقد يحدث هذا الشيء بالفعل بعد ذلك .

فهل معنى هذا أننا نعيش فى بعد رابع لومضة من الزمن نرى بطريقة غامضة المستقبل من خلالها وكأنما مررنا بهذا الحدث ونعيش فيه كما يمر قطار الزمن على محطات فى المستقبل .. أو أنها أحلام ورؤى سجلها عقلنا الواعى من العقل الباطن تسجيلا مشوشا مبتورا فما نذكره منها هو الذى يولد فى أنفسنا ذلك الشعور بالتوجس ؟ .

الواقع أننا لا نحب أن ندخل هنا فى الغيبيات فذلك خارج نطاق موضوعنا.

ان الزمن توأم الوجود ولا يمكن أن نفصل بين هذا وذاك فلو افترضنا أن للزمن بداية ونهاية كأى شيء في الكون لكان معنى ذلك أنه قبل أن يظهر الزمن لم يكن هناك زمن وهذا غير متصور كما لا يمكن أن نتصور يوما لا يسبقه يوم.

واذا ما كان للزمن نهاية فسوف يأتى زمن لن يكون فيه زمن . وهذا الافتراض غير متصور ايضا فنحن لا نتصور لحظة لا تسبقها لحظة ولا تليها لحظة تأتى بعدها .

فالعلم والفيزياء والميكانيكا كما لا نزال نعلم لليوم تقوم جميعها على مقالة نيوتن وعلى تصريحه بوجود زمان مطلق ومكان مطلق منظورا اليهما فى ذاتهما وبغض النظر عن متعلقاتهما الخارجية .

ومع هذا فمنذ نيوتن بل ومنذ أرسطو كان يمكن بقليل من أعمال الفكر الفلسفى تبيان خطأ هذه النظرة فالتعينات الزمانية والمكانية التى نلصقها بالأشياء لا تتلقاها حواسنا الا بسبب من الانطباعات التى ترد الينا من الخارج .

ترى هل عسانا أن نفكر بالزمان والمكان لو محقت جميع الأشياء التى ننظر اليها من خلالهما وبالأحرى التى ننظر من خلالها للزمان والمكان ؟

منذ أكثر من ألف عام أجاب أبيتدر على شطر من هذا السؤال بقوله : «لا وجود للزمن بذاته بل وجوده بالأشياء المحسوسة وحدها . تلك الأشياء التى نشأت عنها فكرة الماضى والحاضر والمستقبل . أن الزمان لا يمكن تصوره بذاته مستقلا عن حركة الاشياء أو سكونها » .

وباختصار شديد نقول أن المكان والزمان وحدة واحدة لا انفصام ولا انفصال بينهما وهما ما يمكننا تسميته بالزمكان .

« فرضية يو انكارية »

يرجع الى يو انكاريه فضل السبق الى القول بأن الزمان والمكان أمران نسبيان . ان هذا العالم هو صاحب الفضل فى كثير من الأمور التى تعزى فى العادة الى انيشتين ولكن هذا لا ينقص أبدا من فضل انيشتين الذى برع فى غير هذا القول .

فيو انكاريه يرى أن من المستحيل تصور المكان الخالى . فكل من يتكلم عن المكان المطلق انما يهذر فى كلام لا معنى له ، فلو كبر حجم العالم الف ضعف عن ما هو عليه فانه يظل يبدو لنا كما هو ، ولا تحس أجسامنا بأى فرق، لأن جميع الأطوال والمقاييس تكبر بنفس النسبة التى كبر بها ايضا . فالمكان نسبى ولا يمكن تصوره مستقلا عن الأشياء التى يقاس بها وكذلك الحال فى الزمان .

وأدخل بو أنكاريه فى نسبيته هذه بعض التعديلات والاضافات حتى قال ان دوران الأرض حول الشمس لا يخرج عن كونه فرضا أيسر من الفرض القديم وأقرب تناولا ولكنه ليس اصح منه لأن الفكرة الصح تتضمن الاطلاق وهذا غير ممكن .

وباختصار فوجهة النظر تلك تعنى الامتار أو أى وحدة قياس هى التى تخلق المكان أمامنا وأن الساعات أو أى وحدة قياس هى التى تخلق الزمان لحواسنا.

مما سبق نخلص الى حقيقة أن الزمان المطلق لا وجود له بل هو رهن بالحركة ناتجا منها وكذلك لا وجود للمكان المطلق بل هو رهن بالاشياء المتمكنه أى التى تحتل مكانا .

ان المطلق حلم يدغدغ العقول منذ فجر الفلسفه وحتى يومنا هذا ولكن لا يتعدى كونه حلم لا أكثر .

« هل للزمن وجود ؟ »

نتساءل هل للزمن وجود ؟ سؤال نجيب عليه بالنفى وبأن الزمن من وهم اخترعه الانسان وعاشه .

ان الاتجاهات الجديدة لعلم الفيزياء تنفى ايضا اعتقاد الناس بأن هناك وجودا قائما للزمان وآخر للمكان وكان يعتقد أن هذين الوجودين على الرغم من استقلالهما الواحد عن الاخر الا أنهما خطان متوازيان مثال ذلك أن وجودى فى بقعة معينة على الارض يحدد الزمن أو الوقت كما تشير اليه الساعة وهذا صحيح ولكنه نصف الحقيقة والحقيقة كاملة ان وجود الزمان والمكان وجود واحد وليس وجودين منفصلين وسمى ذلك بـ (الزمكان) .

فالزمكان على الكرة الأرضية يوقفنا على الاحداث التى تقع الأن ، « كما نظن » ولو فرضنا ان هناك رجلين احدهما على الأرض والأخر فى كوكب يبعد ألف سنة ضوئية عن الأرض ولو افترضنا ان كل منهما يرى الأخر ويخاطبه نجد ان الشخص الموجود على الكوكب الآخر سيقول للواقف على الأرض أنه يرى الأحداث التى كانت تقع منذ ألف سنه ولا يرى شيئا مما يقع الآن . مما يعنى أن الوجود الزمانى مرتبط ومرهون بالوجود الزمانى (١).

هذه خلاصة لنظريات كثيرة وأقوال عدة تؤكد وتخلص الى وهمية وجود الزمان وأنه (الزمان) حالات متعاقبه . وبالتالى فانه نفى وجود الزمن هو نفى لتسلسله فى حواسنا بأجزاءه الثلاث الماضى والحاضر والمستقبل ، فالوجود الحقيقى لحالات وأحداث موجوده أساسا ولكننا لم نصلها بعد سميت مستقبل وحالات وأحداث تجاوزناها سميت ماضى وحالات نعايشها هى الحاضر .

---

(١) اينشتاين ونظرية النسبية ـ د . عبد الرحمن مرحبا .

والبعض من العلماء خلص الى نظريات تنفى اعتقاد الناس ان هناك وجودا قائما للزمان وآخر للمكان وكان يعتقد أن هذين الاقنومين مستقلين كل منهما عن الآخر وأنهما خطان متوازيان فوجودى فى بقعه معينه على الأرض (المكان) يحدد الزمن أو الوقت كما تشير اليه الساعة والا كان تحديدا ناقصا فلا يمكن أن تقول أنه موجود فى المكان المحدد ويكون هذا الخبر صحيحا اذا لم تحدده بمتى أى البعد الزمانى للحالة .

اذا فهما (الزمان والمكان) وحدة واحده نسيج واحد لا يمكن فصلهما مطلقا وما لا يمكن فصله فهو وحده واحدة .

****

[ثنائية الوجود]

أو

[السايكو مكان]

يطالعنا بعض المفكرين ، والباحثين فى هذا بنظريات عدة منها نظرية أن المستقبل شيء موجود بالفعل وأنه ليس شيئا يولد في وقته ، حين وقته ، وربما كان هناك اجماع ، أو ما يقارب الاجماع على هذا الرأى الذى نميل اليه فعلا، ولعل الشواهد والبراهين التى ستأتى فى سياق ما يرد فى الفصول التالية من ـ هذا ـ الكتاب تؤيد ذلك ، كما أننا نورد هنا بعض الأفكار للتأمل ، وهى أفكار تدور حول التوافق بين الوجود الداخلى والوجود الخارجى للانسان .

فقد دأب الناس على الاعتقاد فى ثنائية وجودية للانسان ، فالوجود الخارجى المحيط به والوجود الداخلى بما فيه من ادراك وذاكرة وخيال وتصور ووجدان وغيره والفلاسفة معسكران الأول يعتبر الوجود الداخلى انعكاس للوجود الخارجى وصدى له والآخر يعتقد العكس أن الوجود الخارجى ماهو إلا انعكاس ونتاج للوجود الداخلى للانسان .

وكما تغيرت ثنائية الزمان والمكان وأصبحت (زامكان) كذلك يجب أن نزلزل الثنائية الوجودية للانسان الى وحدة تجمع دخيلة الانسان والوجود الخارجى من حوله وهذا المركب هو المفسر الحقيقى لواقع الانسان ويطلق عليه «السيكومكان» ، وهو الذى يحدد موقف الانسان من الوجود وعلاقته به .

والنظرية السيكومكانية تنكر تقسيم الزمن الى ماضى وحاضر ومستقبل ، وتجعل الزمن واحدا بل وتجعله داخلا فى المركب السيكومكانى .

فقد اعتدنا أن نغلب الذاكرة على التنبؤ ونرتمى فى احضان الكسل ولو بذلنا بعض الجهد لاستطعنا أن نستغنى عن الشواهد ولتنبأنا بما سيقع مستقبلا وحيث أن العلم الحديث ينكر وجود المكان المستقل عن الزمن أو العكس وجمعهما فى وجود واحد أطلق عليه « زمكانى » كذلك الوجود السيكومكانى ينكر تسلسل الأحداث من ماضى وحاضر ومستقبل .

فالطائرة العادية كانت أقل سرعة من الصوت ثم ماثلته ثم أصبحت أسرع منه ويمكنها أن تكون أقل من سرعة الصوت ايضا كذلك السيكومكان يستطيع أن يعمل بالقوة العادية وبقوة أكبر من العادية ويحطم سلسلة الزمكان ويسبق الماضى والحاضر ويزور المستقبل .

ويظهر السيكومكان أثناء النوم بانطلاقه فيه والذى يمكنه من رؤية الماضى والحاضر والمستقبل وأن تغلف بغلاف رمزى .

وهذا يؤكد أن المستقبل شيء موجود فعلا وليس شيئا محدثا والزمن ليس الا تسلسلا للاحداث وتتابع لها كتتابع محطات الطريق ، ومثال ذلك لو أن مسافرا صغيرا أو جاهلا مسافر من الطائف الى الرياض برا سيمر فيما يمر على بلدة المويه ثم بلدة عفيف ثم بلدة الدوادمى وهكذا وهو لا يعى حقيقة وجود هذه المحطات من قبل فسيقول ان الله خلق المويه ثم عفيف ثم الدوادمى ثم ... فعلى فهمه أنها خلقت توا وتباعا ، عندئذ يفهم الحقيقة انها موجوده من القديم ولكنه لم يصل اليها سوى الآن .

وهكذا فالمستقبل موجود فعلا وليس شيئا محدثا ، ولكننا لم نصل اليه بعد والأحداث ليست الا محطات تتوالى علينا ونصلها تباعا .

« السفر عبر الزمن »

لكى نتحاشى القسوة فى التعبير ، أو قل لكى نبتعد عن عدم الدقة فى التعبير ، فأننا لا نثبت هنا مقولة (ان الانسان عدو لما جهل) كما هى ، ولكننا نخففها ، فنقول أن الانسان (معارض) أو (رافض) لما جهل ، فخياله الذى هو جزء من ذهنيته وعقله المحدود كثيرا ما يعجز عن استيعاب هذا المجهول .

من هذا فكرة السفر عبر الزمن حقيقة .

السفر للغد أو للأعوام المقبلة ، السفر للماضى لعامين أو قرنين خلت (أحلام) هو الوصف الحقيقى لهذه الأفكار وفعلا هناك رابط كبير بين هذا الوصف وبين الحقيقة ، فالاحلام هى الوسيلة الوحيدة المتاحة للسفر عبر الزمن ومشاهدة المستقبل ولو مرموزا والماضى كذلك ويختلط الامر علينا غالبا وبالأصح دائما .

ولكن هل السفر عبر الزمن حقيقة ممكنة ؟

لو أجبتك أنا بنعم فهل تصدق ؟

ولو كان المجيب والمؤيد لهذه الحقيقة من أكبر علماء الأرض ، فهل تقتنع باجابته ؟

اينشتين أجاب بنعم . هذا ممكن ولكن .. نظريا . اذا أنه لتحقيق ذلك هناك أمور يجب توفرها قد تكون مستحيلة الآن . على الأقل . أو حتى فى القريب العاجل أو المستقبل القريب .

فقبل مئات السنين لو سأل أحد الاشخاص الآخر هل يمكننى أن أفطر فى الحجاز وأتغدى فى بلاد المغرب وأتعشى فى بلاد الشام ؟

الجواب سيكون حتما لا ، بعد الاستخفاف بالسؤال وسائله وقد يلحق بالجواب شرط مكمل للاستخفاف فيشترط المجيب بقوله الا اذا كانت تملك بساط الريح . وبساط الريح هذا شيء وهمى من نبع خيال مؤلفو الاساطير الشعبية .

هل كان المجيب يتوقع انه بعد مئات السنين سيكون هناك بساط ريح من صنع الانسان بعيدا عن الوهم بساط ركائزه العلم هو أقوى وأكبر مما تخيلته الاساطير ، فالبساط المتخيل لم يتجاوز من عليه في كل التخيلات أعداد أصابع اليد من أفراد يمتطونه ، لم يحمل جملا معهم ولم يحمل خدما ، أو مما لذ وطاب .

فبساط اليوم هو الطائرات التي تحمل المئات من الناس بل وتحمل السيارات والمعدات الحربية الثقيلة كالدبابات وينعم ركابها من المسافرين بضيافة على مستوى ساكنى القصور .

اذا لو أمكن صنع آلة الزمن التى ضرب بها مثلا ـ أينشتين بالقطار يتحرك على سكة حديد مستديرة بحيث يعود بعد مضى وقت معين الى نقطة اطلاقه أو محطه بدء الحركة بعد انطلاقة بسرعة عالية جدا أقل من سرعة الضوء لاتضح لنا أن الراكب سيكتشف فى هذه الحالة أن ساعته تتأخر وتزداد تأخرا كلما زادت سرعة القطار وسيستنتج أنه عندما يمضى يوما واحدا كمسافر فى القطار فانه تمضى عدة سنوات بالنسبة للموجودين فى المحطة .

وعندما يعود (المسافر) حسب توقيت ساعته بعد يوم الى بيته سيفاجأ بأن جميع أقاربه قد قضوا نحبهم منذ زمن طويل ، وتغير الحال الى حال آخر . وهكذا يكون مسافرا للمستقبل .

وفى الواقع النظرى فانه يمكننا أن نسافر بمثل آلة الزمن هذه الى المستقبل غير أننا لا نستطيع العودة للماضى .

ومن العبث حتى مجرد التفكير في أن تطور العلوم فى المستقبل سيمكننا من السفر الى الماضى والا سنكون مضطرين فى هذه الحالة الى اعتبار بعض الأوضاع غير المعقولة ممكنة الحصول فاذا ما سافرنا الى الماضى فمن الممكن ان نجد أنفسنا فى وضع مستحيل كوضع الانسان الذى يرى النور فى الوقت الذى لم يره فيها والداه بعد . بعكس السفر الى المستقبل فلا يحمل فى طياته الا تناقضات ظاهرية فقط .

****

الباب الرابع

١ - وهم تغير المستقبل
تفاعل الماضى مع الحاضر والمستقبل
٢ - التنبؤ والزمن
٣ - التنبؤ والأحلام
٤ - التنبؤ بالذهاب للمستقبل
٥ - الإسراء والمعراج
٦ - لمحات مستقبلية

وهم تغير المستقبل

قبل أن نلج من هذا الباب إلى فصوله التى تتناول مسألة الوقت تناولاً يغاير ماسبق، نود أن نطرح وجهة النظر التى ترددت فى بعض المؤلفات الغربية والتى تقول أن فى إمكانية الإنسان تغيير مستقبله ، فالمستقبل ليس محتوماً بل هو محتملاً .

وأقول هذا هراء فلا يمكن لأى كائن من تغيير مستقبله إطلاقاً وحتى لو ظن ذلك فمن جهله لايعى أن التغير الحاصل هو جزء من الحقيقة وليس ثم غيرها.

قد يكون هذا الرأى - تغيير المستقبل - مقبولاً قولاً من الأشخاص العاديين ولكن تدهش الآن إذا ماكان الرأى صادراً من باحثين وعلماء يشار إليهم بالبنان.

وهذه الباحثة الباراسيكوجية الأمريكية الدكتورة لويزا راين تقول بإمكانية التغيير . وتروى هذه القصة دلالة على ذلك .

تقول أنها استطاعت بفضل حلم رأته أن تنقذ حياة ابنها الذى يبلغ من العمر عاماً واحداً من مصير كان يبدو محتوماً فقد ذكرت فى مقال نشرته صحيفة الباراسيكوجى الأمريكية أنها حلمت ذات صباح أنها اصطحبت طفلها للنزهة فى معسكر على ضفاف إحدى الأنهار الصغيرة فى منطقة ريفية جميلة وغفلت عنه وعند بحثها عنه وجدته مكفياً على وجهه فى جدول صغير وقد غرق وفارق الحياة .

استيقظت من الحلم وهى تبكى وظلت قلقة إلى أن مرت أيام وأيام ونسيت الحلم.

وفى أواخر الصيف خرجت فى نزهة مع الأصدقاء وبصحبة طفلها ونزلوا فى مكان مشابه تماماً لذاك الذى رأته فى حلمها وفعلاً غفلت عنه لحظات وتذكرت فى تلك اللحظات الحلم وأخذت تبحث عنه إلى أن وجدته فى جدول ماء زلت قدمه فيه وأوشك على الغرق فعلاً فأنقذته . وهى مقتنعة تماماً أنها غيرت المستقبل بتغييرها مجرى الحدث وإنقاذها الطفل (١) .

فهل هذا حقاً تغيير للمستقبل أم أن إنقاذها للطفل هو جزء من مستقبله المرصود ، لم يزد أو ينقص أو يتبدل .

وهذا الأمر يقودنا إلى التطرق لمسألة - نرى لزاماً علينا الخوض فيها - هى مسألة التنبؤ بشتى صوره سواء أكان حدساً أو حلماً أو رؤيا ، أو كان شفافية فطرية أو مكتسبة تجعل صاحبها يرى ما لا يراه الآخرون . ولعل التنبؤ وهو يتصل بطرف مع علم المستقبل يختص به المولى عز وجل ثم بعض من اصطفى من رسله أو أنبيائه ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبة أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾ الآية (٢) .

---

(١) حقائق وغرائب - دار ابن زيدون - بيروت .

(٢) سورة الجن ، الآية ٢٦ .

تفاعل الماضى مع الحاضر والمستقبل

الأحداث كلها مهما كان مداها من الضخامة أو من التفاهة محكومة بقاموس السببية أو الغلبة الطبيعية فوراء كل حادثة سلسلة لاتنتهى من الأسباب الطبيعية التى تمتد للوراء إلى مبدأ نشوء الكون .

ولما كانت أحداث الحاضر فى حالة تفاعل مستمر وحركة دائبة لاتتوقف فإن المستقبل أيضاً يكون فى حالة تفاعل مستمر بقدر تفاعل الحاضر ويكون عبارة عن بحر هادر متحرك متضامن مع بحر الحاضر .

وإذا ألغينا من سفر الوجود عنصر الزمن لأن الزمن وهمٌ من صنع حواسنا ولأن الطبيعة تحيا دائماً فى حاضرها الأزلى بحسب المفهوم المجرد لمعنى الزمان والمكان لأصبح مفهوماً تماماً قول بعض كبار العلماء من أمثال أوليفر لودج والبرت أينشتين أن الأحداث حتى المستقبلية منها مسطورة رياضياً على لوحة الوجود – منذ الأزل – بسبب ما أسلفنا من عبارات [١] .

يقرر سير أوليفر لودج Oliver Lodge العالم الطبيعى المعروف أن هناك فكرة تضئ لنا الطريق وهى أن الزمن مجرد أسلوب نسبى للنظرة إلى الأشياء فنحن نتحرك فى وسط ظواهر بسرعة معينة . ونفس هذا السير الشخصى للأمام يتم بأسلوب موضوعى كما لو كانت الأحداث تسير حتماً بنفس هذا الأسلوب الشخصى وبنفس السرعة بالضبط ومع ذلك فإن هذا مجرد أسلوب للنظر إلى الأمور .

وبمعنى أنه يمكن للأحداث أن توجد دائماً بالنسبة للماضى وبالنسبة للمستقبل أيضاً وربما نحن الذين نفد للأحداث وليست الأحداث هى التى تفد إلينا .

---

(١) د. رؤوف عبيد – التسير والتخير .

مثال شخص يركب قطاراً فإن هذا الشخص إذا لم يمكنه أن يغادر القطار ولا أن يغير سرعته فإن من المحتمل جداً أن يتصور المناظر كما لو كانت تتتابع أمامه فى الحدوث ويصبح عاجزاً أن يتصور أنها كلها موجودة من قبل .

ويعنينا هنا بوجه خاص من رأى سير أوليفر لودج قوله « يمكن للأحداث أن توجد دائماً بالنسبة للماضى وبالنسبة للمستقبل أيضاً ونحن الذين نفد إلى الأحداث وليست الأحداث هى التى تفد إلينا ... » [1].

فهذا القول يفيد خضوع الأحداث الطبيعية لقانون إلهى هو الذى يجعلها من المحتمل أن توجد دائماً بالنسبة للماضى وبالنسبة للمستقبل أيضاً .

وكان شاعراً عربياً قد قال :

إن الأمور التى فى اللـوح قد كتبت

أمـا أتتـك وأمـــا أنت آتيهـا

فحسب الرأى السابق فقد قال هذا الشاعر نصف الحقيقة . والحقيقة كاملة أنه لا مفر لنا من أقدارنا فنحن لها وافدون وافدون .

---

(١) د. رؤوف عبيد – التسير والتميز .

التنبؤ والزمن

نلاحظ أننا رغم ما تقدم وما طرح من آراء لم نضع - حتى الآن - معياراً محسوساً يبرهن مدى علاقتنا بالزمن وأين موضعنا منه ، ودورنا فيه ، والحقيقة أنه لاتوجد وسيلة علمية بمقدورها أن توضح حقيقة صلة الوجود الإنسانى بمفهوم الزمن وبالتالى بمدى قدرة هذا الوجود بالإحساس بالزمن ، أقوى من إخضاع التنبؤات الصحيحة بأحداث المتسقبل الناتجة عن الأحلام والرؤى الصادقة وإخضاع ذلك لتحليل علمى مفهوم .

فالأحلام والرؤى الصادقة موضوع وثيق الصلة بمدى مقدرة الإنسان بالتنبؤ بأحداث المستقبل المؤسسة على أحداث الماضى والحاضر ، سواء كان ذلك فى اليقظة أو فى النوم وهذا أمر وثيق الصلة بمعنى الزمان والمكان فى حواسنا من ناحية وفى نواميس الحياة من ناحية أخرى .

إن الأحداث المستقبلية قد تلقى بظلال باهتة الصورة قبل وقوعها وهذه الظلال قد يراها بعض الأشخاص وبالأصح قد يشعرون بها بصورة تتفاوت فى وضوحها وفهمها فيصيب فهمهم حيناً ، ويخطئ أحياناً .

فنحن إذا ما أحطنا إحاطة تامة بكل عناصر الحاضر أمكننا من الناحية النظرية وحدها أن نعرف ولو بعض معرفة عناصر المستقبل .

فعدالة الله جل وعلا وحكمته اقتضت أن يكون مستقبلنا مرتبطاً بحاضرنا برابطة لا انفصام ولا انفصال فيها هى رباطة السببية . وبعبارة أخرى أراد الله جل وعلا أن يكون مستقبلنا هو نتاج حاضرنا وحاضرنا نتاج ماضينا .

يقول ابن سينا « لو أمكن لإنسان أن يعرف الحوادث التى تقع فى الأرض وطبائعها لعرف مايحدث فى المستقبل ... وأنا يكون هذا لبشر ... إلا من ارتضى

الله من نبى أو رسول يعطيه مايشاء ويعلمه مايشاء ولكن الإحاطة الكاملة والمعرفة التامة هى فقط للمحيط الخبير الحكيم جل وعلا » .

وهناك ندرة من الناس من يحدث له خطفات رؤيا لا يعى معناها الجزء الأكبر منهم ولايستوعبها إلا الندرة من تلك الندرة . وذلك بتخطى حاجز الزمن ورؤيته مستقبلاً « أو ماضياً » فى لحظة غفوة عن الشعور المباشر للإنسان .

فالتنبؤ هو عبور حاجز الزمن الذى يصدق صدقاً كاملاً أو جزئياً . وهذا الصدق مرجعه الإنسان ذاته وفهمه للأمر ، وهذا يتم فى حالتين :

الأولى :

والإنسان فى حالة نوم ويكون ذلك بالأحلام والرؤى المنامية فالإنسان بنومه يتحرر من حواجز الزمن .

الثانية :

والإنسان فى لحظة أو لمحة لاشعورية ولا دخل له فيها ولن يكون . يرى لوحة مستقبلية عن حادثة ما بعيدة عنه .

ولنسمى الحالة الأولى كما هى بالأحلام والثانية بعبور الزمن ولنتحدث عن كل منها فى ما يلى :

التنبؤ بالأحلام

ورد فى القرآن الكريم والسنة النبوية مرات عديدة وفى مواضع شتى ومع طائفة من الرسل والأنبياء ومنهم رسولنا رسول الهدى صلى الله عليه وسلم تسليماً عروضاً حول الرؤيا وكان لها دور هام وبارز فى مجريات الأمور فى سيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

فقد عرض القرآن للرؤيا فى عدة مواضع منها مثلاً لا حصراً قصة رؤيا يوسف عليه السلام وأخوته فقال تعالى : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ﴾ (١).

روى ذلك لأبيه يعقوب عليهما السلام الذى عرفها وعرف ماتعنى مستقبلاً له فقد كانت برمزية واضحة لمن من عليه الله بالفهم والعلم من أمثال يعقوب عليه السلام .

كانت حالة مستقبلية رؤيت برمزية .

كذلك رؤيا صاحبى السجن وتفسير يوسف عليه السلام لها حيث يقول الله تعالى : ﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر أنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين . قال لا يأتيكما طعام ترزقانه ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أما أحدكما فيسقى ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ (٢).

وهناك أيضاً رأى صاحبا السجن أموراً مستقبلية برمزية ما ، عرفها يوسف عليه السلام وفسرها لهما .

---

(١) الآية ٤ ، سورة يوسف .

(٢) الآيات ٣٦ - ٤١ ، سورة يوسف .

كذلك رؤيا فرعون مصر والتي عجز كل من حوله من أعوان وحاشية وكهنة عن تفسيرها وعبرها يوسف عليه السلام يقول تعالى : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلت خضر وآخر يابست يا أيها الملأ أفتوني في رؤى إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ (١) .

وهناك قصة رؤيا ابراهيم عليه السلام وفداء إسماعيل ودور تلك الرؤيا في السيرة الإسلامية ليومنا هذا حتى أن جزءاً من مناسك الحج الإسلامي مستخلص من تلك الرؤيا وهو الفداء .

يقول تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعي قال يابني أني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين إن هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ﴾ (٢) .

كما أن القرآن الكريم أيد وحقق رؤيا رسول الله ﷺ في دخوله المسجد الحرام هو وصحبته الكرام ، آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين وكان لرسول الله ﷺ ما رأى .

وقد كانت رؤياه تلك قبل صلح الحديبية وعندما عاد بعد الصلح تشكك البعض حتى تحقق في عمرة القضاء .

يقول الله تعالى : ﴿ لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً ﴾ (٣) .

---

(١) الآية ٤٣ ، سورة يوسف .

(٢) الآيات ١٠٢ – ١٠٨ ، سورة الصافات .

(٣) الآية ٢٧ ، سورة الفتح .

أما ما ورد فى السيرة النبوية حول الرؤيا وتفسيرها والحرص والاهتمام بها كذلك كثير يدل على ما للرؤيا من أثر ودور بارز فى السيرة النبوية واهتمامه صلى الله عليه وسلم بها .

ويكفى للدلالة على ذلك أن هناك العشرات من الأحاديث والوقائع المتعلقة بالرؤيا ومعالجتها وتأويلها .

وقد وصفها رسول الله ﷺ فقال فى حديث رواه أبو هريرة : « إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة ... » الحديث [(١)] .

ومن أهمية الرؤيا فى الإسلام أنها مبدأ الوحى ، فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « كان أول مابدى به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ... » الحديث [(٢)] .

ومن اهتمام رسول الله ﷺ بالرؤيا أنه كان إذا صلى الصبح سأل أصحابه رضى الله عنهم إن كان أحد منهم رأى رؤيا البارحة .

فاهتم أصحابه رضى الله عنهم بالرؤيا وكان أبو بكر رضى الله عنه يعبر الرؤيا بحضور رسول الله ﷺ وبإذنه فيوافقه فى أغلب تعابيره .

كما لا نجد كتاباً من كتب الأحاديث الصحاح إلا وللرؤيا حديثاً وتعبيراً باب مستقل فيه . والتنبؤ بالأحلام هو الحالة الأولى من عبور الزمن .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه – كتاب الرؤيا .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه – كتاب الرؤيا .

التنبؤ بالذهاب للمستقبل

والحالة الثانية لعبور الزمن ورؤية المستقبل هى حالة لنسميها سفراً أو ذهاباً للمستقبل يحدث ذلك للإنسان وهو فى يقظته بقوى خارجة عن إرادته.

ويحدث ذلك لأناس كثيرون فى شكل لقطات نادرة الحدوث تختلف درجات وضوحها ولكنها لاتتعدى النوادر وهى لقطة يراها الإنسان وغالباً لايتذكرها إلا عندما يصل إليها مستقبلاً ويتذكر أنه رأى هذا من قبل.

ولكن ذلك يحدث للرسل والأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه بوضوح أعلى وأدق وذلك بمشيئة الله تعالى وستأتى لاحقاً على ذكر حالات من تلك كأمثلة .

وهناك حالة نادرة لم تحدث لبشر قط رأى فيها المستقبل البعيد البعيد وهل هناك أبعد من يوم القيامة ؟

فقد رأى رسول الله ﷺ مشاهد يوم القيامة ، ورآها رأى العين وهو ﷺ بكامل جسمه وحواسه ويقظته ولا أظن قال قائل أنه قد رآها خيالاً، بل كانت حقيقة واقعة ، وربَّ سائل يسأل كيف ذلك والقيامة لم تحدث ، وربَّ مجيب أنها بقدرة الله وفعل الله جل وعلا . ولكن دون تعليل أو توضيح سوى إيكال ذلك إلى قدرة الله عز وجل ، وسنعرض لهذا فى الصفحات التالية .

نعم ذلك بقدر الله وبفعل الله سبحانه وتعالى أراه المستقبل حقيقة لا وهماً، واقعاً لا شبهة فيه أو فى أحداثه ووقائعه .

يقول تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ (١).

---

(١) الآية ١ ، سورة النحل .

فكل الأمور واقعة ووافدة إلينا حسب ترتيب المحيط الحكيم الخبير لها .

فعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ماخلق الله القلم فقال : اكتب ، قال يارب وما أكتب ؟ قال أكتب ماكان وماهو كائن إلى الأبد » أخرجه أبو داود الترمذى .

الإسراء والمعراج

الإسراء والمعراج من معجزات رسولنا الكريم ﷺ ، وكلنا – نحن المسلمين – فى غير حاجة لسرد ما وقع فى تلك الليلة المباركة فإن ماجرى فيها ثابت متواتر تزخر به – وفى غير خلاف – أمهات كتب الحديث والسيرة ، وكتب التفاسير .

لكن قبل ذلك – فهناك أمران ينبغي إيضاحهما ، والتأكد عليهما – وهما :

أولاً : أن رسول الله ﷺ أسرى به جسماً وروحاً يقظاً واعياً فى تمام وعيه وكمال حواسه .

ففى حديث طويل أورده ابن هشام فى سيرة النبى ﷺ قال ابن اسحاق:

كان من الحديث فيما بلغنى عن سراه ﷺ عن عبد الله بن مسعود وأبى سعيد الخدرى ، وعائشة زوج النبى ﷺ ، ومعاوية بن أبى سفيان والحسن بن أبى الحسن وابن شهاب الزهرى ، وقتادة وغيرهم من أهل العلم ، وأم هانى بنت أبى طالب.

قال ابن اسحاق : وحدثت عن الحسن أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «بينما أنا نائم فى الحجر إذ جاءنى جبريل فهمزنى بقدمه فجلست ، فلم أر شيئاً فعدت إلى مضجعى ، فجاءنى ثانية فهمزنى بقدمه فجلست فلم أر شيئاً فعدت إلى مضجعى فجاءنى الثالثة فهمزنى بقدمه فجلست فأخذ بعضدى فقمت معه ، فخرج إلى باب المسجد فإذا دابة .... » الحديث .

هذا دليل كون رسول الله ﷺ أسرى به جسداً وروحاً يقظاناً مدركاً بكامل حواسه ووعيه .

أما الأمر الثاني : فمشاهدة رسول الله ﷺ أحداث يوم القيامة عندما أعرج به للسماء .

ففى حديث رواه أبو سعيد الخدرى يقول عن رسول الله ﷺ : « ثم رأيت رجالاً لهم مشافر كمشافر الإبل فى أيديهم قطع من نار كالأفهار يقذفونها فى أفواههم فتخرج من أدبارهم فقلت : من هؤلاء ياجبريل؟ قال : هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلماً » .

قال : ثم رأيت رجالاً لهم بطون لم أر مثلها قط بسبيل آل فرعون يمرون عليهم كالإبل المهيومة حين يعرضون على النار بطئونهم ولايقدرون على أن يتحولوا من مكانهم ذلك ، قال : قلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا » .

والحديث طويل ومتواتر وفيه وصف للعديد من المشاهد وهى التى لاتكون إلا فى يوم القيامة ودليل ذلك قول رسول الله ﷺ فى حديث ابن عمران :

« إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار . يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة » رواه مسلم فى صحيحه.

إذاً ما رآه رسول الله ﷺ من مشاهد ليلة عرج به هو مشاهد لأناس يعذبون بأعمالهم يوم القيامة حيث يكون من فى الجنة فى الجنة ، ومن فى النار فى النار .

ومعجزة الإسراء والمعراج حالة فريدة وحيدة لم تكن ولن تكون لبشر قط بعد رسول الله ﷺ .

وهناك العديد العديد من الأمور والحالات التى تنبأ بها رسول الله ﷺ حدوثاً . منها مثلاً بلوى عثمان رضى الله عنه ومقتل عمار ووعده لسراقة بأن يلبس سوارى كسرى وغير هذا كثير .

لمحات مستقبلية

نحن هنا حيال تنبؤات ناتجة عن رؤية لمحة مستقبلية قد يفهمها البعض وقد يجهلها البعض الآخر ، وفى حياة أغلب الناس يحدث مثل هذا وإن كان نادراً جداً فيعيها البعض ويتذكرها كاملة وهذه نادرة النوادر وقد يتذكر البعض جزءاً منها وتشوش عند الآخرين . ومن تلك الحالات الثابتة بعض حالات تتم فيها رؤية لمحة من المستقبل .

وما نسوقه هنا ليس تنجيماً وخبطاً فى علم الغيب ولكنها مشاهدات لم يسع أصحابها إلى إعلانها كنبوءات ، ولا كانوا حين قدموا الارهاصات عنها ، ووصفوها يعلمون أن جانباً منها أو كلها سيتحقق بالفعل .

ونحن نعرض لها هنا ، لكونها نوعاً من التنبؤ يتخطى الزمن .

حادثة الباخرة

قبل أربعة عشر عاماً من غرق السفينة (تيتانك) فى ١٤ أبريل من عام ١٩١٢م فى المحيط الأطلنطى ، فى أول رحلة تقوم بها من بريطانيا إلى الولايات المتحدة صدرت رواية لكاتب بريطانى على حظ قليل من الشهرة يدعى (مورجان رومرتسون) يصف فيها حادثة لسفينة حديثة جبارة تسمى (تيتان) تتعرض للغرق فى أول رحلة لها عبر الأطلنطى من ميناء جنوب إنجلترا إلى نيويورك .

وقد كانت روايته تلك لا بأس بها فنياً فهى مليئة باللمحات الإنسانية والمواقف المؤثرة ولكنهـا - رغم ذلك - لم تنل حظاً من لفت أنظار الكثـيرين حينذاك .

ولكن بعد مضى أربعة عشر عاماً وصفت وقائع تلك الرواية بأنها أغرب نبوءة فى تاريخ الأدب خلال القرن التاسع عشر .

فقد وصفت الرواية بتشابه صارخ حادث سفينة الرواية تيتان وسفينة تيتانك الحقيقية فالاسمان متشابهان والوصف متطابق من حيث الحمولة والسرعة القصوى وعدد قوارب النجاة فيها .

وقد كان غرقهما فى أول رحلة لها وفى نفس الخط وكلاهما توصفان بأنهما أقوى وأضخم من أى سفينة تم صنعها حينئذ . ووصفتا أنهما غير قابلتين للغرق .

وبعد حادث تيتانك عاد الناس لقراءة رواية مورجان مذهولين بالتشابه حتى فى التفاصيل الدقيقة بين الحادثتين كما لو أن مورجان كتب ماكتبه عن رؤية حقيقية للحادث ، أو كتحقيق صحفى [١] .

---

(١) حقائق وغرائب - دار ابن زيدون - بيروت .

طائرتا الكنارى

وهذا طالب عادى ، لا يختلف عن بقية زملائه فى شئ تنبأ بحادث طيران، رأى تفاصيله فى رؤيا منامية ، ورأى – حتى الصحف – رأى عناوينها تنشر تفاصيل الحادث ، ثم بعد ثمانية أيام يقع الحادث ، كما رآه الطالب بتفاصيله .

ففى شهر أبريل عام ١٩٧٧م نشرت عدة صحف أمريكية وعالمية ومنها صحف مصرية بعنوان « طالب أمريكى تنبأ بكارثة طيران وتصادم طائرتى جامبو» .

فقد رأى الطالب (لى فريد) فى جامعة ديوك الأمريكية لقطة مستقبلية قبل ثمانية أيام من الحادث وكتب بذلك رسالة لعميد جامعته تنبأ – حيث رأى – تصادم طائرتين من طراز جامبو . ورأى الصحف وهى تروى تفاصيل الحادث وعناوينها المثيرة منها بالنص :

« مصرع ٥٨٣ شخصاً فى حادث تصادم طائرتى بوينج ٧٤٧ فى أكبر كارثة فى تاريخ الطيران » .

لقد كانت فعلاً رؤيا مذهلة دفعت بعدد من علماء النفس والاخصائيين من جامعتى هارفارد وكاليفورنيا بالسعى لمحاولة دراستها ومحاولة معرفة المزيد عن هذه الحالة كيف ؟ ولماذا ؟ [(١)].

---

(١) أسرار السلوك – د. رؤوف عبيد .

مطار دريم

هنا رجل على مستوى اجتماعى راق ، رأى بعينى رأسه مشهداً لم يتحقق – بالفعل إلا بعد مضى فترة طويلة من الزمن ، ونحن نروى القصة هنا كما حكاها .

فهل رأى جانباً من شريط المستقبل قبل حدوثه ؟ أم هل سبق ذهنه الحاضر فتخطاه إلى المستقبل ؟ فالمسألة لا نستطيع – حسب وقائعها أن نسميها مجرد خيالات ، أو توهمات ، فالجانب الحسى فيها ينفى هذا .

يحكى مارشال الجو سير فيكتور جودارد عن حادثة رأى فيها قطعة مجسدة من المستقبل فيقول :

إنه بينما كان يطير فوق اسكتلندا ذات يوم فى أوائل الثلاثينات فاجأته عاصفة عنيفة كادت تحطم طائرته الصغيرة ذات المروحة الواحدة والجناحين المزدوجين فقرر أن يبحث عن مكان صالح للهبوط فيه حتى تنتهى العاصفة .

وكان يعرف أنه يحلق بالقرب من مطار مهجور يسمى « دريم » فقصده على الفور ، ولكنه فوجئ عندما بدأ بالهبوط فى المطار بمنظر لم يتوقعه إذ بدلاً من أن يشاهد مطاراً مهجوراً معتماً وجد المكان ساطعاً بضوء الشمس ووجد هناك عدداً من العمال والميكانيكيين بملابسهم الزرقاء يعكفون على إصلاح وتجهيز مجموعة من الطائرات الصفراء اللون .

ودهش المارشال لأكثر من سبب ، فهو أولاً يعرف أن هذا المطار مهجور منذ سنوات ليس فيه أى طائرات ولا أعمال أو نشاط من أى نوع ، وثانياً ، لأن أى أحد من العاملين عندئذ لم يتلفت إلى طائرته رغم هبوطه بها إلى حوالى ٥٠ قدماً فقط من أرض المطار ثم عاد إلى الارتفاع إذ وجد المطار مشغولاً ومتغيراً

على النحو الذى ذكر مما دعاه للارتفاع ثانية إلى العاصفة وواصل طيرانه إلى مطار آخر .

وقع هذا الحادث عام ١٩٣٤م عندما كان مطار « دريم » لا يعدو كونه مطاراً مهجوراً ولكن فى عام ١٩٣٨م أى بعد أربع سنوات من هذه الحادثة أعيد افتتاح المطار وتحول إلى مدرسة للتدريب تابعة لسلاح الجو الملكى البريطانى لمواجهة خطر الحرب القادمة .

وخلال هذين التاريخين تحول لون طائرات التدريب فى سلاح الجو البريطانى من اللون الفضى إلى اللون الأصفر . وهذا ما لم يكن يعرفه المارشال عند الحادثة فى عام ١٩٣٤م فتأكد أنه شاهد فى الواقع قطعة مجسدة من المستقبل أو بمعنى آخر سافر إلى الزمن المستقبل .

ولم يجد ولن يجد تفسيراً لذلك من جهة كيف تم ذلك وكل ماوجده أنه تم لا أكثر .

الباب الخامس

١ – التآين
٢ – الزمن بعد رابع
٣ – الموت خروج من الزمن
٤ – الزمن إدراك حسى

التــآيـن

ربما كانت كلمة (التآين) غريبة على سمع أحدنا ، جديدة دخيلة على قاموس مفرداته اللغوية ...

فالكلمة مولدة من الآن ، وهو نقطة الزمن الحالية. غير أننا حينما نتعرض لها هنا لا نتعرض لها تعرضاً مطلقاً بل لنقرب إلى ذهن القارئ فكرة نسبة الآنية مع الحدث ، وهذا ما اصطلحنا على تسميته بالتآين أى اتفاق الآن مع الواقعة ، إذ لايكون هذا من غير هذا ، ولا يكون أحدهما إلا مصطحباً الآخر .

والتآين يختلف من مكان إلى مكان ، ثم اننا حينما نقول مكان لانعنى – بالضرورة – أن يكون هذا المكان فى نطاق رؤيتنا ومحسوسنا ، أو فى كوكبنا الأرضى عموماً . ونحن نعلم يقيناً أنه يصعب على المرء أن يتقبل الفكرة القائلة بأن هذه اللحظة التى نسميها « الآن » لا تشمل الكون بأسره . ومع هذا فإن أينشتين فى عرضه لنظرية النسبية الخاصة لاينى عن إثبات خطأ التفكير بإمكان وجود حوادث متآنية فى عوالم لا رابطة بينها وضرب لذلك المثل الآتى :

وقف شخص على أحد أرصفة السكة الحديدية يراقب أحد القطارات فهبت عاصفة هوجاء وأبرقت السماء وأرعدت فأصابت شرارتان الخط الحديدى فى نقطتين (أ) و (ب) فى آن واحد .

هنا يتساءل اينشتين عن معنى « فى آن واحد » وكلما يصل إلى تحديدها على وجه الدقة يفترض أن الشخص المذكور يقف فى منتصف الخط بين (أ) و (ب) تماماً . وأنه مزود بجهاز من المرايا يمكنه من رؤية (أ) و (ب) فى آن واحد من غير أن يحرك عينيه .

فإذا وصلت الشرارتان وانعكستا فى مراياه فى آن واحد بالضبط قلنا أن الشرارتين متآنيتان .

ولنفرض أن القطار قد أقبل وأن شخصاً آخر يقف فى إحدى العربات بحيث يكون فى وسط القطار تماماً وأنه مزود أيضاً بجهاز من المرايا يشبه جهاز الشخص الواقف فى المحطة ولنسمه الشخص المتحرك والذى اتفق وجوده أمام الشخص الواقف وفى نفس الوقت الذى أصابت الشرارتان النقطتان (أ) و (ب) .

السؤال : هل يرى الشخص المتحرك الشرارتين فى وقت واحد ؟

الجواب الصحيح : كلا ! . لأنه وهو يتحرك من (ب) إلى (أ) لم يعد فى منتصف الطريق بين (أ) و (ب) فهو يبتعد عن (ب) ويقترب إلى (أ) وبالتالى لا تصل الشعاعتان متأنيتين وبالنسبة إليه وإن وصلتا متآنيتين بالنسبة للشخص الواقف ، وهكذا يختلف تقدير كل منها لـ « الآن » .

فالتآين أمر نسبى فـ « الآن » ليس لها معنى واحد بل معانى كثيرة بقدر ماهناك من عوالم . فكل عالم له زمانه المحلى الخاص به وحده بل أن أى حادثة لا تنتسب إلى عالم خاص بعينه لا معنى لتحديد زمن حدوثها مطلقاً .

فلا زمان إلا الزمان المحلى ولا مكان إلا المكان المحلى وكلاهما رهن السرعة والسرعة هى الكابح المزدوج تبطىء الزمان وتقلص الأطوال . فكلما كان التسارع أطول تقلص الجسم (المكان) وبالتالى أبطأت قيمة الحوادث (الزمان) فالمتر الذى ينطلق بسرعة تعادل ٩٠٪ من سرعة الضوء يتقلص إلى نصفه تقريباً وكلما زادت السرعة تقلص أكثر .

وإذا بلغت سرعته سرعة الضوء فإنه يتقلص حتى لايبقى منه شئ .

وكذلك الساعة تختلف باختلاف العالم الذى تنتمى إليه . فإيقاعها فى عالم متحرك غيره فى عالم ساكن فهى فى الثانى أسرع منها فى الأول وإذا انطلقت بسرعة الضوء تتوقف تماماً .

ولا علاقة لكل ذلك بالمادة التى يتركب منها المتر والساعة ، فالمتر المصنوع من الحديد أو الخشب أو الزجاج يتقلص بنفس النسبة وكذلك الساعة العادية أو الرملية أو الشمسية ونبض الإنسان وتنفسه . كل هذا يختلف إيقاعه باختلاف العالم المنسوب إليه .

وهذه التغيرات لايحس بها سكان العالم المتحرك أنفسهم بل سكان العوالم الأخرى عند مقارنتها بعالمهم هم .

ويتبع القول بالزمان المحلى نتائج يصعب على العقل قبولها بسهولة إذ أنه لما كان هذا الزمان يتناول جسم الإنسان كله فيمكننا الاستنتاج بأن الشخص المتحرك حركة بطيئة يشيخ قبل الشخص المتحرك حركة سريعة . بل إن الشخص الذى يتحرك بسرعة الضوء يعيش خارج الزمن ولايشيخ أبداً « نظرياً » .

ولتصور ذلك نقتبس المثل الآتى من لونجنين فقد تخيل هذا العالم رحالة فلكياً قفز إلى الأمام بسرعة تساوى ١/٢٠٠٠٠ من سرعة الضوء وقفز إلى المستقبل قفزة إلى الأمام ليرى ماتكون عليه الأرض بعد سنتين من سنيه هو .

ولما عاد إلى الأرض وجد أن السنتين اللتين قضاهما فى الفضاء تعدان قرنين من عمر الأرض . ووجد الأرض آهلة بسكان جدد وعادات جديدة وحضارة جديدة وكل مايتوقع أن يحدث خلال قرنين .

الزمن بعد رابع

استكمالاً للبراهين التى نوسقها فى مسألة التآين نقدم هنا قاعدة معروفة تعرّف القارئ وتعينه وتقرّب إلى ذهنه تفسيراً منطقياً عن مانحن بصدده .

إننا نلجأ إلى التقسيم المتعارف عليه ، وهو أن المكان يتمثل فى الأبعاد الثلاثة الطول والعرض والعمق . وكل هذا يتعلق بالمكان ، ولما كنا قد أسلفنا القول بأنه لايستقيم تعيين المكان بغير حدثه حتى يتحقق الآن فإنه لابد من رابعاً يضاف إلى الثلاث الأول الزمن فيكون بعداً .

قال مينكوفسكى عام ١٩٠٨م « إننا نعين موقع نقطة على سطح بخطين اثنين احداثيين وأن العالم لا يتألف من نقطة ساكنة والحدود التى يعين موقعها وموقع الأشياء بالنسبة إليها ساكنة أيضاً .

ولكن كيف العمل إذا أردنا تحديد موقع السيارات التى تتحرك ضمنها؟

لايمكن بل لايكفى أن نقول أن السيارات توجد فى موقع كذا من المحطة كذا، بل يجب أن تذكر أيضاً ساعة كذا ، ولتعين موقع سفينة فى عرض البحر لايكفى القول أنها توجد فى المنطقة كذا التى يتقاطع فيها خطا العرض والطول. بل يجب أن تذكر أيضاً اليوم والساعة والدقيقة التى تم فيها إقرار هذا الموقع .

ولتعيين موقع طائرة فى الجو يجب أن نضيف إلى ذلك الزمن وبعبارة أخرى أنه لتعين موقع حادثة تجرى فى الكون لايجوز الإكتفاء بتعيين أحداثياتها المكانية – طولاً وعرضاً وعمقاً – بل لابد من مراعاة الزمن . وهكذا نرى أن أربعة أبعاد لابد منها لتعيين موقع جسم متحرك .

هذا وليست إضافة بعد الزمن إلى الأبعاد المكانية الثلاث من قبيل التمحل الرياضى وإلا لما وقف عند هذه الأبعاد وحدها . إذ أن التمحل الرياضى يتطلب أبعاداً أخرى كالضغط الجوى وغيره .

ويقول مينكوفسكى « يجب أن نعلم أن المكان أو الفضاء الخالص لا وجود له ، والزمان يجرى شئنا أم أبينا فالكون نظام لايفتر وحركة دائمة لاينضب معينها فالحياة تعنى تغير المواقع » .

إن ذلك حقيقة شك فيها أفلاطون واكتشفها مينكوفسكى وتوسع فيها أينشتين وويل . ولنا أن نختار بين القول أن الحياة نسيج من الحوادث تتتابع على نول الزمن أو بأن هذه الحوادث جامدة فى الزمكان (الزمان والمكان) وأننا نحن الذين نمر عليها .

وهذا يعنى أن علينا أن ننسخ من أذهاننا فكرة الزمان والمكان كعنصرين منفصلين وألا نعترف إلا بأن الكون يتكون من العنصرين متداخلين معاً تداخلاً لا انفصام فيه وهو المعنى الزمكانى الذى ينساب عليه وجودنا وهذا الزمكان هو الكون ذو الأبعاد الأربعة - الطول - العرض - العمق - الزمن .

وهناك مفكرون قبل مينكوفسكى قالوا بأن الزمان بعد رابع للأشياء ولم يكن هو السباق . وفى هذا المعنى قال ديدرو عام ١٩٧٧م أنه لاسبيل إلى تصور أكثر من ثلاثة أبعاد . ومع هذا فإن مفكراً مثلى يعتقد أنه من الممكن اعتبار المدة بعداً رابعاً وأن حاصل الزمان بالصلابة ينتج عنه على نحو ما شئ ذو أربعة أبعاد.

إن تمثل هذا الكون ذى الأربعة أبعاد لا يتطلب جهداً عقلياً فوق طاقة البشرية ، فالإنسان العادى قد يشعر بقشعريرة عندما يسمع بأشياء ذات أربعة أبعاد ويغمره شعوراً لايختلف كثيراً عن شعوره تجاه الأمور الغيبية ومع هذا

فليس ثمة حقيقة أبسط من القول بأننا نعيش فى كون متصل زمكانى ذى أربعة أبعاد .

قد لانستطيع إيواء البعد الرابع عندما نرسم على الورقة فنحن نستطيع تعيين الإحداثيات الثلاثة . الطول والعرض والعمق أما البعد الرابع (الزمن) فنقف حيارى لانجد جواباً لصعوبة تصور ذلك .

ليس هذا مهماً إنما المهم أن نعلم جيداً أن نقطة ما فى حادثة ما ، من حوادث العالم لايكون رصدها مضبوطاً كل الضبط إلا عندما تعرف إحداثياتها الأربع الطول والعرض والعمق والزمن.

إذاً فكل الحقيقة توجد من الزمان والمكان معاً ، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر . ثم أن جميع المقاييس الزمانية هى فى الحقيقة مقاييس مكانية وكل المقاييس المكانية تتوقف على المقاييس الزمانية فى صحتها ودقتها .

فالثوانى والدقائق والساعات والأيام والأسابيع والشهور والفصول والسنون إنما هى فى الواقع والحقيقة مقاييس مكانية لموقع الأرض فى الفضاء بالنسبة للشمس والقمر والنجوم . وكذلك خطوط العرض والطول التى يعين بها الإنسان مكانه على الأرض تقاس بالدقائق والثوانى أصلاً ، ولابد لتحديدها بالضبط من معرفة اليوم والساعة من السنة .

والحقيقة الخالصة التى لا لبس فيها « أن وقت الزوال زوية شمسية » .

إن لغة الكلام والكلام المكتوب لايصلحان أن يصفا هذه الأمور ولايمكن للكلمات مهما شحنت بالصور الحسية أن تعبر عن ذلك . فهل يمكن ترجمة أو وصف أحد القطع الموسيقية الرائعة ؟

إن الشخص الذى فقد إحدى عينيه يفقد الإحساس بالبروز ، ويرى الأشياء كأنها مرسومة رسماً وتنعدم لديه أحاسيس الثلاثية فى الأبعاد .

وفى محاولة لتمثل الزمكان الرباعى الأبعاد فلنتمثل الأشكال التى تتعاقب على الزهرة فى مختلف مراحل نموها منذ كانت برعماً صغيراً إلى أن تنمو وتكتمل ومن ثم يتساقط ورقها وتذبل . فإن تصور تلك الأطوار يعطينا صورة مجملة عن الزهرة فى الزمكان .

الموت خروج من الزمن

إذا كنا قد شبهنا عبور الكائن بالزمن ، كسائر يمضى فى طريق ما ، فما ترك خلفه منه هو الماضى ، وما هو عليه منه ، هو الحاضر ، وما هو مقدم عليه منه، هو المستقبل . فماذا لو أنه ترك ذلك الطريق المتصل ، وخرج عنه ، ولابد يوماً أو فى لحظة ما أن يخرج منه .

وهنا نقف هنيهة لنفرق بين النوم والموت ، وكلا الحالتين وفاة ، والوفاة هى الخروج عن المسار الذى أشرنا إليه ، غير أن الإنسان فى منامه لايخرج عن هذا المسار إلا جزئياً ، ووقتياً ، بينما خطاه تمضى فى مسارها تقتحم المستقبل تحيله إلى حاضر ، ثم ماض ، فإذا قضى عليه بالموت ، وأمسك روحه بارئها خرج عن المسار ، وبالتالى خرج عن حساب الزمن فى ذلك المسار الدنيوى ، ودخل فى مسار بعد آخر الله أعلم به ذلك أن الزمن نظام نعيشه ونعايشه والموت هو خروجنا عن هذا النظام والتعايش معه فى رحلة اللاعودة إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى وبالنوم نخرج أيضاً من هذا النظام بصورة مؤقتة .

ففى قوله الله سبحانه وتعالى : « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، قال كم لبثت قال يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام ... » الآية (١) .

فالله سبحانه وتعالى أمات القائل أنى يحى هذه الله بعد موتها وهو عزير كما روى بن عباس رضى الله عنهما فأماته الله مائة عام . وقد يكون الموت هنا نوماً ؛ فالله سبحانه وتعالى ساوى بين النوم والموت . فقال تعالى : «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى

---

(١) الآية ٢٥٩ ، سورة البقرة .

عليهـا المـوت ويرسل الأخـرى إلى أجل مسـمى إن فى ذلك لآيات لقـوم يتفكرون » [1].

ووصف ابن كثير النوم بالوفاة الصغرى والموت بالوفاة الكبرى .

فالله سبحانه وتعالى عندما توفى عزيراً سواء كانت وفاة كبرى أم وفاة صغرى فقد أخرجه من النظام الزمنى مئة عام . ولما أعاده جل وعلا للحياة سئل كم لبثت ؟

قال لبثت يوماً أو بعض يوم حتى أنه لم يتم اليوم لأنه أبصر من الشمس بقية فقال أو بعض يوم فإن الميت أو النائم طالت مدة رقاده أو قصرت الحال واحدة بالنسبة إليه فأجاب عزير بأقل مايمكن أن يكون ميتاً ، أو نائماً فيه لأنه اليقين وفى التفسير أن أماتته كانت فى أول النهار فقال « يوماً » ثم لما نظر إلى ضوء الشمس باقياً على رؤوس الجدار فقال « أو بعض يوم » .

لذا كان الموت بنوعيه الأكبر أو الأصغر المتمثل فى النوم خروجاً من النظام الزمنى الذى نعايشه متخللاً فى مفهومنا ووجداننا بحقيقته ووهمه .

---

(١) الآية ٤٢ ، سورة الزمر .

الزمن إدراك حسى

الكون دائب الحركة . فالنجوم والسدوم والمجرات لاتعرف السكون وحركاتها لايمكن وصفها إلا بنسبة بعضها لبعض ، إذ ليس فى الفضاء اتجاه أولى من اتجاه . ولا حد أولى من حد وليس فيه نجم كبير ونجم صغير ونجم سريع وآخر بطئ . ونجم عال وآخر واطئ . بل فيه نجم أكبر من نجم ونجم أسرع من نجم وهكذا .

فالمكان كما قال لينبتر « هو نظام علاقة الأشياء ببعضها البعض إذا لم يكن فيه شئ لم يكن شيئاً » .

إن النور هو الوسيلة الوحيدة لنقل ظواهر الطبيعة من مكان إلى آخر . ولما كانت سرعة النور محددة بـ ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر فى الثانية وليست لحظية فالزمان نسبى لأن النور الذى ينقل الحادثات من مكان لآخر يستغرق وقتاً فلكل عالم زمانه المحلى الخاص به .

«إن الإحساس بالزمن شأن الإحساس باللون . صورة من الإدراك الحسى» وهذا القول أكثر مايحيط النظرية النسبية من غموض . فكما أن اللون لا وجود له إذ لم توجد عين تميزه فكذلك الدقيقة والساعة واليوم ليسوا شيئاً إذا لم يكونوا أمارة على حادثة .

وكما أن المكان ليس غير نظام الأشياء المادية وكذلك الزمان ليس غير نظام الحوادث .

لم يكف أينشتين عن ترديد فكرته عن ذاتية الزمان حيث يقول : « تبدو لنا خبرات الفرد منسقة فى سلسلة من الحوادث وتبدو لنا كل حادثة من هذه السلسلة كأنما هى منتظمة تبعاً لمعيار القرب والبعد أو المتقدم والمتأخر أو السابق واللاحق.

وبالتالى فلكل فرد زمان شخصى أو ذاتى وهذا الزمان لا سبيل إلى قياسه وفى الإمكان ربط كل حالة شعورية برقم من الأرقام بحيث يقابل كل حالة لاحقة رقم أكبر من رقم الحالة السابقة .

ولكن هذه الطريقة تظل اعتباطية ويمكننا الربط على نحو أدق بواسطة الساعة. وذلك بمقارنة الحالات الشعورية بعضها ببعض . فالساعة شئ يسهل لنا سلسلة الحوادث وتعدادها .

إننا برجوعنا إلى خبرتنا الإنسانية بالساعة وجعلها شيئاً موضوعياً . نرى أن الفترات الزمنية التى تقيسها الساعة ليست كميات مطبقة ومفروضة . بل أن جميع الساعات ضبطت تبعاً للنظام الشمسى .

فالمدة التى نسميها ساعة ماهى إلا قياس مكانى يساوى قوس قدره ١٥ درجة من دورة الكرة السماوية اليومية الظاهرة فسكان عطارد مثلاً – لو وجدوا – لهم فكرة عن الزمن لكانت تختلف عن فكرتنا اختلافاً تاماً لأن عطارد وهو أسرع السيارات وأقربها للشمس يدور حول محوره فى نفس المدة أيضاً وهكذا فالسنة واليوم على سطح هذا السيار متساويان .

وتفقد فكرة الزمن الأرضى كل معناها إذا انتقلنا إلى جو الشمس التى تنتسب أوقات الكواكب السيارة إليها ولا ينتسب وقتها إلى أى سيار .

ولا يوجد بيننا وبينها ولا بيننا وبين أى سيار آخر أو نجم أى رابطة للصلة الآنية ... فكلمة « الآن » لا معنى لها إلا على الأرض وفى بقعة محدودة من سطحها هى التى تحيط بقائلها .

وكل كوكب له آنه المحدد ، فمثلاً رجل فى لندن يطلب تليفونياً رجلاً فى جدة فمع أن الفرق فى الزمن بين لندن وجدة ثلاث ساعات ، لنا أن نتساءل

ونقول أنهما يتكلمان فى وقت واحد لأنهما يعيشان على كوكب واحد وساعتيهما مضبوطتان تبعاً لنظام فلكى واحد .

ولكن تعقُد فكرة الزمن إذا أردنا معرفة مايجرى مثلاً فى كوكب السمّاك الرامح إذ أن هذا الكوكب يبعد عنا ٣٨ سنة ضوئية . والسنة الضوئية هى المسافة التى يقطعها الضوء فى سنة واحدة باعتبار أن سرعته هى ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر فى الثانية .

فإذا ما أردنا الاتصال بالسمّاك الرامح بالراديو « الآن » فستصل رسالتنا بعد ٣٨ سنة . ويجب أن ننتظر ٣٨ سنة أخرى قبل أن يأتينا الجواب ، فسرعة أمواج الراديو تساوى سرعة الضوء .

فإذا ما نظرنا إلى كوكب السماك الرامح وقلنا أننا نراه الآن عام ١٩٩٤م ، فالحقيقة أننا نرى طيفاً وخيالاً نقل إلى بصرنا بشعاع انطلق من مصدره قبل ٣٨ سنة، أى عام ١٩٥٦م ، فهل نستطيع أن نجزم أن السماك موجود الآن حيث نراه....

آراء فى الزمن

« لقد وجد الزمن متحداً مع الفراغ فى الطبيعة ... إنه جانب ضرورى للكائنات المادية إذ ليس هناك شئ صلب له ثلاثة أبعاد إتساعية فقط .

ومع أننا قادرون على أن ننشئ فى عقولنا كائنات تامة الوصف بداخل الأبعاد الثلاثة – الطول والعرض والارتفاع – إلا أن لجميع الأشياء الصلبة أبعاداً أربعة والإنسان يمتد فى الزمن والفراغ معاً .

أما التفكير فلا يدخل فى الزمن والفراغ ولا يأوى النشاط الأدبى والشعور بالجمال فى الدوام المادى مطلقاً » .

الكسيس كاريل – عالم فسيولوجى

حاصل على جائزة نوبل سنة ١٩١٢

« أما أن يكون الزمن محض خداع وأما أن يكون هناك نظام آخر للزمن حيث أن الأحداث التى سوف تحدث مستقبلاً كان قد تم حدوثها حتى أن البعض يشاهدها حلماً أو رؤيا أو لمحة توقع .

ومع ذلك فإن لا أشعر بارتياح عندما أشاهد حادثة ما لسيارة حدثت ذات يوم من أيام الأسبوع أمام منزلى وأتصور أنها حدثت من قبل » .

العالم البريطانى درايتون توماس

«إن عقل الإنسان أدرى بحقائق المكان لكنه لاينفذ إلى حميم الحركة الزمنية إنما يصل إليها بالحدس أو بالداهة » .

الفيلسوف هنرى برجسون

« بعض الأشخاص يرى حوادث وقعت فعلاً فى الماضى أو ستقع فى المستقبل بعيدة عنه كل البعد كما حصل مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى حادثة سارية المعروفة .

من الملاحظ أن هؤلاء البعض يدركون المستقبل بالطريقة التى يدركون بها الماضى ولكنهم يعجزون عن تميز المستقبل من الماضى .

وتراهم يتحدثون فى حقيقتين مختلفتين عن حقيقة واحدة من غير أن يرتابوا فى أن الرؤية الأولى تتعلق بالمستقبل والأخرى بالماضى وذلك من نشاط الشعور المسافر فوق الفراغ والزمن .

وتختلف طبيعة الزمن تبعاً للأشياء التى يفكر فيها عقلنا فالوقت الذى نلاحظه ليس له كيان منفصل ، إنه فقط طريقة إيجاد الأشياء الصلبة ، فالإنسان مبتدع الزمان الحسابى من توزيع وتقسيم إلى ساعات ودقائق وثوانى إنه تكوين عقلى » .

د. رؤوف عبيد – وكيل كلية الحقوق

جامعة عين شمس

« هناك جانب خاص فى الإنسان ينزع به إلى تجاوز تحديدات الزمن وقهرها ذلك أنه لايفكر تقريباً فى الحاضر وحينما يفكر فيه فما ذلك إلا لكى يستمد منه النور الذى يسمح له بالتصرف فى المستقبل فليس الحاضر بغاية له على الإطلاق بل المستقبل وحده غايته والماضى والحاضر إلا وسيلتان » .

باســـكال

« إن الزمن مجرد أسلوب نسبى للنظر إلى الأشياء فنحن نتحرك وسط ظواهر بسرعة معينة ، ونفس هذا السير الشخصى للأمام يجرى بأسلوب موضوعى كما لو كانت الأحداث تسير حتماً بنفس هذا الأسلوب الشخصى وبنفس السرعة بالضبط ، ومع ذلك فإن هذا مجرد أسلوب للنظر فى الأمور .

وفى معنى من المعانى يمكن للأحداث أن توجد دائماً بالنسبة للماضى وبالنسبة للمستقبل أيضاً ، وربما نحن الذين نصل إلى الأحداث وليست الأحداث هى التى تصل إلينا .

ويمكن أن يكون مفيداً لنا مثال شخص يركب قطاراً فإن هذا الشخص إذا لم يتمكن أن يغادر القطار ولا أن يغير سرعته فإن من المحتمل جداً أن يتصور المناظر التى يراها كما لو كانت تتتابع أمامه فى الحدوث ويصبح عاجزاً عن أن يتصور أنها كلها موجودة معنا من قبل » [١] .

اوليفر لودج

---

(١) التكوين الروحى وأسرار السلوك – د. رؤوف عبيد .

خاتمة

الآن ... وقد جمعت فى هذا البحث غاية جهد عقلنا الإنسانى المحدود، أعترف بأن ما طرح وشرح وورد من فكر المفكرين وعلم العلماء ، وما أول من تأويلات لما جاء فى كتاب الله الكريم والسنة المطهرة ، بكل هذا لم أبلغ من أمر التعريف بقضية كتابى هذا « قضية الزمن » مبتغاى وغايتى رغم أنى اجتهدت وأجهدتك قارئي الكريم فكراً وكددتك ذهناً ، وما ذلك إلا لأن علم الله فى كل مجال علم واسع « ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء » [١] . وما أوتينا منه إلا أقل القليل . وكتابى هذا جهد مقل .

بيد أننى وإلى أن بلغت هذه الأسطر لا أتوقف عن كد الذهن والبحث كى نستزيد معاً من علم الله وماهذا الكتاب وما حوى إلا ومضة تحيى منا الفكر وتوقظ العقل وتعينه على محاولة الوصول قليلاً إلى حقيقة الزمن الذى نعيشه نحن البشر ، معترفين بأننا جزء منه وهو جزء من تركيبة حياتنا .

إن عملنا بإرادتنا أو قسرنا على ذلك مسيرين أو مخيرين فإن كل ذلك مسطوراً سلفاً لا نملك يداً فى تغييره حتى ولو توهمنا ذلك بكلمة « لو » أو «ليت» فمنظومة الحياة إلى نهاية الدنيا وماقدر المولى سبحانه وتعالى فى الآخرة معلوم فى علمه موجود ومسطور لا يستحدث فيه حديث ، ولايجد فيه جديد ، وكل ما سيكون هو كائن سلفاً .

ونبقى نحن ....

فمهما سافرنا فى الماضى ...

ومهما أبحرنا فى المستقبل ...

---

(١) آية الكرسى ، سورة البقرة .

مهما شفت أرواحنا ... فتنبأنا النبوءات الصادقة ...

ومهما شطت عقولنا بالخيالات ... وألهمت بالرؤى والأحلام فى المنام..

ومهما كانت قوة نشاطاتنا الذهنية بعد الواقع والحسيات فإنه تبقى لعلم الغيب مفاتيح لايعلمها إلا من عنده مفاتيح الغيب لا يطلع على غيبة أحداً إلا من ارتضى من رسول .

إن صدق الأقوال فى كل ما أوردناه هو قول المولى عز وجل خالق الكون، الذى جعل للزمن ولكل شئ قدراً وقول رسول الحكمة والهدى ﷺ الذى لاينطق عن الهوى .

وفى نطاق علم الله الذى علم الإنسان نعرج على اجتهادات المجتهدين من العلماء والمفكرين ، فنجد آراءها أقرب من غيرها وأوضح ، وأكثر جلاء فى التعريف بحقيقة الزمن والوقت ، ولعل من أبرزها ماقيل من أن الزمن مجرد أسلوب نسبى للنظر إلى الأشياء .

أو كما قال البعض الآخر من أن المستقبل موجود فعلاً ونحن نقترب من أحداثه كما يقترب القطار من المحطات القائمة على الخط الذى يسير فيه ، ولا فكاك من ذلك حتى ولو لجأ الواحد منا إلى أمر أعتقد أنه غيّر به قدره ، فهذا الأمر الذى أتاه هو ضمن تلك المحطات .

وتبقى حقيقة واحدة نصل إليها آخر الأمر كخلاصة لكل ما أوردناه من شواهد وما أثبتناه فى كتابنا هذا من جدل وبراهين حقيقة لا تشوبها فى نفوسنا شائبة ، هى أن كتاب الكون كامل بكل أحداثه وناسه وخلقه إلى ما شاء علم الله لزمن الحياة الدنيا والآخرة .

وأننا إنما نعيش منه حاضراً آنياً بأبعاد أربعة ، وهى تمثل ماضينا ذا البداية الذى ولى وحاضرنا الآتى ، ثم تبقى بقية الكتاب لا يطلع عليها أحد إلا بمشيئة سبحانه إن شاء أطلع عليها نبياً مختاراً أو رسولاً مرسلاً ، أو ملكاً مقرباً ، أو إن شاء أرسل الروح فى منامها عبر المستقبل فأطلعها رمزاً أو تصريحاً على ماشاء مما لم يقع بعد ، ثم أرسلها والإسراء والمعراج ، ومعجزات الرسل شاهد قائم على الأمر الأول ، ثم الأحلام والرؤى شاهد على الأمر الثانى ويبقى أمر ثالث أن صحت وقائعه كان لزاماً علينا تصديقه ، والأخذ به والحكم عليه كحكمنا على ماسبق ، ذلك هو التنبؤ بحدث لم يقع ولله فى خلقه الخيرة ، خلق النفوس على مراتب ودرجات من الشفافية بحيث تنعكس على بعضها وقائع مابعد الملموس ومايتجاوز المحسوس .

ونعود للمحور الرئيسى لكتابنا هذا المتلخص فى وهمية الزمن وكونه وهماً، خلق لنا نعيشه فى أذهاننا وليس كونه واقعاً مجسماً منفصلاً عن الأبعاد الأخرى للحياة، فهل وصلت معى قارئى الكريم لذلك أنت أيضاً ؟

إن كان جوابك بنعم فمؤكد أنه سيتبع هذه الموافقة تعديلات فى مجمل حقائق أخرى هامة وحيوية فى شئون شتى عن حاضرنا ومستقبلنا سنراها من زاوية مغايرة لما كانت ترى به سابقاً .

لك الرأى ولك النتيجة ولك الشكر لقراءتك كتابى والله يهدى لسواء السبيل .....

المراجـع

- القرآن الكريم .
- فتح البارى : أحمد بن على بن حجر العسقلانى : دار المعرفة – بيروت.
- طريق الهجرتين : ابن قيم الجوزيه : دار مكتبة الحياة – بيروت .
- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب : الإمام فخر الدين الرازى : دار الباز – مكة المكرمة .
- فى التسيير والتخيير بين الفلسفة العامة والقانون : د. رؤوف عبيد : دار الفكر العربى – القاهرة .
- الإنسان روح لا جسد : د. رؤوف عبيد : دار الفكر العربى – القاهرة .
- المنهج الإيمانى للدراسات الكونية : د. عبد العليم خضر : الدار السعودية للنشر والتوزيع .
- التكوين الروحى وأسرار السلوك : د. رؤوف عبيد : دار الفكر العربى – القاهرة.
- حقائق وغرائب : دار ابن زيدون – بيروت .
- اينشتين والنظرية النسبية : د. محمد عبد الرحمن مرحبا : دار القلم – بيروت.
- أخوان الصفا : دار بيروت للطباعة والنشر .
- الفتوحات المكية : محى الدين بن عربى : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- المختار : ريدرز دايجست .
- الكتاب والقرآن : د. محمد شحرور : الأهالى للطباعة والنشر – دمشق .
- صحيح مسلم : الإمام مسلم بن الحجاج القشيرى : دار الفكر – بيروت .

الفهرس

الصفحة	الموضوع

٩٥ / ٨٣٩٩
I. S. B. N.
977-00-1333-5

مركز الدلتا للطباعة
٢٤ شارع الدلتا - اسبورتنج
تليفون : ٥٩٥١٩٢٣

نحن والزمن

وتبقى حقيقة واحدة نصل إليها آخر الأمر كخلاصة لكل ما أوردناه من شواهد وما أثبتناه فى كتابنا هذا من جدل وبراهين ... حقيقة لاتشوبها فى نفوسنا شائبة ... هى أن كتاب الكون كامل بكل أحداثه وناسه وخلقه إلى ما شاء علم الله لزمن الحياة الدنيا والآخرة.